
روايات عالمية
أوجيني جرانديه

روايات عالمية

يوجيني جراندية

للكاتب الفرنسي الكبير

أونوريه دي بلزاك

(١)

هناك في احدى مدن الريف الفرنسي ، بيوت قاتمة قديمة ، يبعث منظرها الكآبة في النفس .. صامتة كالقبور لاحس فيها ولا حركة ، حتى ليخيل للغريب انها شاغرة .. لولا تلك العيون التي تطل من النوافذ بين الحين والحين عندما يسمع اصحابها دبيب اقدام في مدينتهم .

ومن بين تلك البيوت الكئيبة العتيقة ، بيت منعزل في طرف الطريق المؤدية الى قصر سومور ويعرف ببيت الاب جرانديه ، وهو رجل عصامي كان في شرخ شبابه صانع براميل رقيق الحال ولكنه تزوج ابنة تاجر اخشاب غني وهو في الاربعين من عمره فاستطاع ان يشترى أفضل كروم المقاطعة، ثم راح سكانها السذج يرمقونه بالتجلة والاحترام رغم انه لايعرف سوى القليل من القراءة والكتابة ولا يجيد سوى زراعة الكروم ! وما لبث ان عين عضوا في محافظة سومور ، وزادت ارباحه وتضخمت ثروته أيام الامبراطورية الفرنسية وعين رئيسا للبلدية ؛ وان كان لقبه قد تغير واصبح مقصورا على (السيد) جرانديه ، لان نابليون كان يمقت الالقاب ويؤثر ان يلقب كل فرنسي بالمواطن تحسب . ثم ورث (جرانديه) عن جده ووالدته مبالغ طائلة واراضي واسعة فاصبح اغنى رجل في المقاطعه واحتفظ في أقبيته بافخر الخمور ، وكانت احاديثه مقتضبة موجزة ولا تزيد اكثر

اجوبته على اربع جمل لا يكاد يحيد عنها وهي : ولا اعرف ، لا استطيع ، لا اريد ، سانظر في الامر ، كما كانت نبراته هادئة وعباراته غامضة ملتوية لا تتسم بالحزم والاقرار .

وكان زاهدا في لقاء الناس وزياراتهم ، ولا يكاد يزوره انسان فيما عدا ستة من السكان في مقدمتهم ثلاثة من آل كريشوه حاكم مقاطعة دي بونفون ، والآخرون ثلاثة من آل دي كريسان الذين يزاحمون آل كريشوه في التقرب الى هذا السيد الغني البخيل والتنافس على طلب يد ابنته يوجيني : الاولون يطلبونها للحاكم كريشوه والآخرون يطلبونها للصراف الفرنسي دي كريسان رغم ما يتحدث به اكثر السكان من ان الفتاة ستتزوج من ابن عمها الثري ، ولكن الطامعين في يدها من الاسرتين كانوا مطمئنين الى ما نقل من انقطاع الصلة بين الاخوين منذ اكثر من ثلاثين عاما .

ومن الشخصيات التي تعيش في بيت جرانديه وتستحق الكثير من العناية ، نانون الكبيرة ، خادمة البيت الدميمة العملاقة العجوز . تلك المرأة التي ذاقت مر الحياة في شبابها ثم اشتغلت عند جرانديه واخلصت في خدمته اخلاصا جعله يطمئن اليها والى امانتها المنقطعة النظير . ومع ان اجرها السنوي لم يكن يعلو الستين ليرة فانها ظلت تدخر كل ما تناله حتى اصبحت بعد خمس وثلاثين سنة في عداد صغار الاغنياء واصبحت كل خادمة في سومور ترمقها في غيرة وحسد غير عالمة بما ذاقته نانون الكبيرة من اقسى ضروب العنت والاستعباد . وكانت تنام في ردهة البيت الخارجية حيث

تستطيع ان تسمع ادنى حركة تنبعث وسط السكون المخيم على المنزل في الليل والنهار كما كان عليها ان تنام كالكلب الامين بعين واحدة !

* * *

وفي خريف سنة ١٨١٩ شاهد اهالي سومور في الصباح الباكر آل جرانديه في الكنيسة يستمعون الى القداس ، فتذكروا أن ذلك اليوم عيد ميلاد الآنسة يوجيني . وفي المساء أسرع آل كريشوه لزيارة آل جرانديه وتهنئة الآنسة يوجيني قبل أن يسبقهم الى ذلك آل كريسان .

وغمر قلب السيدة جرانديه في ذلك اليوم فرح لا يحد وهي ترى ابنتها يوجيني تبلغ الثالثة والعشرين من عمرها . وكان يضيء وجهها النحيل القبيح نور من التقوى والورع والقناعة والحياء . وكان زوجها ينتهز مثل فرصة ذلك اليوم ليهمس في اذنها انها ليست دميمة على الاطلاق فتنفرج اساريرها وتؤمن بحديثه وتنسى كل شيء عن بخل ذلك الرجل وشحه المقيت .

ودخل آل كريشوه — بعد انقضاء موعد العشاء — يحملون باقات من الورد النادر وتقدم الحاكم يقول للآنسة يوجيني :

— اسمحي لي يا آنسة أن أضرع الى الله في يوم ميلادك السعيد أن تنقضي أيامك في غبطة وهناء وأن يحفظ عليك صحتك وجمالك اللذين تنعمين بهما الآن .

ثم قدم لها باقة من الزهور الغالية وقبلها في نحرها

بالقرب من عنقها ، وبهذه الطريقة خيل للحاكم الذى يشبه مسمارا كبيرا علاه الصدأ أنه يتغزل ويتشبب !!

وسرعان ما قدم آل كريسان تتقدمهم الأم الجميلة التى لاتزال تحتفظ بالكثير من فتنتها والى جانبها زوجها الضابط المتقاعد الذى يمشى رغم سنه المتقدمة بقامة عالية وبخطوات عسكرية وقور . ثم اينحنى يوجينى عاتقا :

ـ انت دائمة الجمال يا آنسة ولا يعرف الانسان ماذا يتمنى لك فوق ما حبتك به الطبيعة من فتنة وحكمة ؟!

ثم قدم لها صندوقا يحمله خادم ويحوى زهرة نادرة من زهور بلاد الكاب كانت قد وصلت الى أوروبا على النو . واحتضنتها السيدة كريسان فى حرارة وهى تقول :

ان ادولف يقدم لك تذكارا أثريا فى عيد ميلادك السعيد .

وإذ ذاك تقدم شاب خجول فى مظهره رغم أنه قدم أخيرا من باريس حيث يعثر عشرة آلاف فرنك فوق نفقاته المدرسية فى كلية الحقوق .. تقدم الى الفتاة بعلبة صغيرة من أبدع ما صنعه الفنانون فى باريس وما ان فتحتها الآنسة يوجينى حتى بهرت عينيها جواهر تخطف الابصار !!

والتفتت الفتاة لتنظر الى والدها نظرة حيرى سائلة أيحق لها أن تأخذ تلك الهدية ؟ فقال لها فى لهجة مسرحية :

خذيها يابنيتى .. الهدية لاترد .

ووقف آل كريشسو مشدوهين عندما رأوا نظرة الاعتراف بالجميل التى ألقتها سليلة جرانديه على ادولف سليل آل كريسيان . وزاد قلقهم عندما قدم السيد كريسان

علبة طباق فاخرة بديعة الصنع لصديقه جرانديه الذى صاح بخادمته الامينة :

ـ هيا يانانون الكبيرة وهيئى المناضد للعب الورق فى عيد ميلاد يوجينى .

وتجحت السيدة كريسان فى اجلاس ولدها بجوار يوجينى . وراح الجميع يلعبون الورق ويضجون فى الضحك لفكاهات جرانديه السخيفة ونوادره الباردة ولكن هذا كان يهمس الى نفسه الماكرة :

كل هؤلاء يجيئون من اجل دراهمى ويتزاحمون على يد ابنتى الغنية ولكنها لن تكون لاحد من الطرفين ؟ وساستخدمهم جميعا كما يستخدم الصياد الشص

وراحت يوجينى تتطلع الى الحشد الماثل امامها والى جانبيها لظرات بريئة خفيضة وهى أشبه بالطائر المدلل السجين فى قفص فاخر بسبب غلاء ثمنه !! واستمرت المهزلة تمثل على مسرح المطامع والامانى ساعة طويلة حتى طرق الباب فجأة فى قوة وعنف جعلا السيدات يقفزن تقريبا عن مقاعدهن .

وغمغم جرانديه قائلا :

ـ ليس هذا طرق رجل من سومور .

بينما صاحت نانون : أيريدون تحطيم الباب ؟!

ودوع السيدة جرانديه شعور غريب وبخاصة عندما قال السيد كريسان :

ـ لا يمكن أن يكون هذا الطرق صادرا عن نية بريئه !

وسرعان ما اطل شاب يتبعه ساعى بريد المهاجرين

يحمل محفظتين كبيرتين فعاود الحاضرين هدوؤهم واستاذنهم صاحب الدار قائلا :

– ارجعوا الى اللعب وساعود بعد أن اعرف ماذا يطلب القادم .

ثم خرج وأغلق باب الردهة وراءه . وسأل ادولف جارته :

– أظن هذا الشاب ابن عمك يا يوجيني . انه شاب جميل وقد شاهدته في احد مراقص باريس

ولكن والدة ادولف لكزته بمرفقها وهمست في أذنه :

– صه أيها الاحمق !

واذ ذاك عاد جرانديه يتبعه الشاب الزائر الذى حيا الحضور في دماثة وابتدرته يوجيني قائلة :

– أظنك تؤثر الجلوس بجوار الموقد بعد رحلتك في الطقس البارد .

فنهرها والدها عابسا : ان للسيد لسانا في فيه ..

ولكن الشاب أجابها باسما : اشكرك يا ابنة العم ..

وسألته السيدة كريسان :

– هل جاء السيد من العاصمة ؟..

– نعم يا سيدتي . أنتم تلعبون ؟ حسنا .. أرجو أن تتابعوا اللعب ..

وتطلع الحضور في دهشة الى حركات الشاب الارستقراطية .. وكأنما أراد (شارل جرانديه) أن يخلب أولئك الريفيين السذج بهندامه الانيق وأساليبه المصطنعة المنتقاة . وكانت

تلك أول مرة يزور فيها الريف فحمل معه أجمل الازياء وأبدع بنادقه ومسدساته ومداه .. وقدر أن يرى حتى عمه مثات ممن يقضون أوقاتهم في الصيد واقامة الحفلات في القصور

– يجب أن تكون شجاعا والا ما استطعت مغادرة الريفية الشامخة التى تجمع بين جمال القدم وروعة الفن ..

ولكن هل في وسع باريسى .. وباريسى من طراز راق .. أن يندمج في هذا المحيط القروى دون أن يثير حوله عاصفة من التساؤل والاستنكار ؟ .

والواقع أن آل كريشوه وآل كريسان مضوا بعد أقل من ساعة يتطلعون اليه كما يتطلعون الى الزرافة ويتساءلون في سخرية :

– أهكذا الرجل الباريسى ؟ !

أما (يوجيني) فقد خالته (ملاكا) هبط من السماء في ثوب أنيق ورائحة عطرية تنبعث من شعره الكستنائي الجميل ثم بادرت تعاون (نانون) في اعداد مخدع نوم ابن عمها الفاتن وطلبت اليها ان تجلب كمية من الخطب لموقده دون ان تطلع أباها الشحيح على الامر .. كما جاءت ببعض ما تحتفظ به من الاقداح والصور الجميلة فنشرتها على حافة المدفأة ثم قالت لوالدتها :

– ان ابن عمى لن يحتمل ياماه رائحة البترول .

وفتحت محفظة نقودها وأخرجت الليرة الوحيدة التى أعطيتها مصروفا شهريا ثم قالت للخادمة :

– خذى يانانون .. الذهبى واشترى شمعا ..

ولما رأتها والدتها تحمل (السكرية) صاحت بها :

ـ ومن أين لك السكر ووالدك يحبسه في صوان يحتفظ بمفتاحه ؟ ..

ـ سنشتري في نانون سكرا مع الشمع ..

ـ وأبوك ماذا يقول وهو يرى كل هذا الاسراف ؟!

ـ الا يجوز ان يشرب ابن اخيه قدحا من اناء الحل بالسكر ؟ ! ثم أليس هذا عيد ميلادي ؟ وفي تلك الأثناء كانت السيدة كريسان ترهق شارل جرانديه بحديثها :

ـ يجب ان تكون شجاعا والا ما استطعت مغادرة باريس بمباهجها ومسراتها لتقضي الشتاء في سومور !

واصطدم الشاب بخيبة الأمل فآثر أن يعتد حين الحديث التافه بينه وبين السيدة كريسان التي تحتفظ وحدها بآثار الطابع الباريسي ولم يلهها الحديث مع الآخرين عن مواسم الكروم والخمور .. وسألته السيدة التي استأثرت بانتباهه :

ـ ارجو أن تتناول عندنا قريبا بزيارتك فتحمل الى زوجي ما حملته الي من السرور . ان كبار التجار والنبلاء يجتمعون عندنا فتستطيع ان تحارب الضجر الذي سيستولي عليك حتما اذا بقيت في دار السيد جرانديه الذي لايعرف شيئا يتعدى غلته .. أما عمتك فامرأة متدينة متزمتة ، وابنتها فتاة طائشة لاتجيد غير رفي الملابس الممزقة .

وقاطعها زوجها ضاحكا :

ـ يخيل الي انك تريدين الاستئثار وحدك بشارل ؟!

وساله أدولفا :

ـ لا ادري هل تذكرني وقد كنت قريبا منك في حفلة الرقص التي اقامها البارون نوسنجي في باريس ؟!

فأجابه شارل وهو يرى نفسه قد أصبح محورا للحديث .. نعم أذكرك ياسيدي .. والتفت الى السيدة كريسان قائلا :

ـ أظنه ابنك ياسيدتي ؟ فأجابت : نعم

بينما كان صاحب الدار مستغرقا في تلاوة الكتاب الذي جاء به شارل من والده وهذا نصه : «أخي ها قد مضت ثلاث وعشرون سنة لم نلتق خلالها .. وكان زفافي آخر مناسبة جمعتنا ثم افترقنا بعدها وكل منا راض عن أخيه . والحقيقة انني لم أكن أتوقع اذ ذاك أن تصبح عماد أسرتنا الوحيد . وعندما يبلغك خطابي هذا أكون قد تجاوزت هذا العالم الفاني بعد أن أضنيت روحي وجالدت طويلا على حافة الهاوية التي قدر أن أتردى في نهايتها السحيقة . انني أتألم وأتعذب لانني مدين بأربعة ملايين لا املك أكثر من ربعها بعد أن قضت الظروف على تجارتي ، ولكن ولدي لايعرف شيئا عن ديوني وسبب افلاسي ، وقد ودعته وداعا جميلا دون أن يشعر بأن روحي تذوب في حرارة ذلك الوداع . ترى هل قدر عليه أن يلعنني يوما ما ؟ ان لعنة أولادنا مخيفة يا أخي فأتوسل اليك الا تدع ولدي شارل يشيع ضريحي بكلمة سخط أو تأفف . واني انما أكتب اليك بدموعي ودمي حيث لا أجد سبيلا الى أن أسكب الأسى في كتابي هذا اليك ، وانني لأترك لك شارل لتكون له والدا بعد أن حرم كل اقاربه من والدته بسبب خطيئتي وتهوري في أني لم أتزوج ابنة نبيل أو كبير . وهكذا

ترى أنني لا أستعطفك من أجلي وإنما من أجل شارل المسكين الذي أعهد به إليك . ولست أطمع في أن تسدد ديوني ولا أظنك من الثراء بحيث تستطيع ذلك . ولذلك أتطلع إلى مسدى دون أن يخالجني أي تأثر أو أسى ، وإنما أطمئن إلى أنك ستكون لشارل نعم الأب خصوصا وهو دمث الخلق كوالدته الراحلة ، وكم أرثي لهذا الولد المسكين الذي ترعرع في البذخ ولا يعلم شيئا عن الحرمان الذي ذقناه في مستهل حياتنا ، وكم أتمنى لو أن يتراءى من القوة ما يمكنني من أن أرسله بدفعة واحدة إلى السماء بالقرب من والدته الحنون ، ولكني أوثر آخر الأمر أن أرسله إليك تطلعه بطريقة هينة على خبر وفاتي وعلى المصير الذي ينتظره معك ، فلا يلاحقني مع الدائنين بميراث والدته . كما أتوسل إليك أن تخبره أنه لم يخسر كل شيء وأن في وسعه أن يثرى بالعمل كما أثرينا . ويا حبذا لو أقنعته بالرحيل إلى الهند فهو شاب شجاع لا يهاب ولا يبعد أن يعود من الشرق غنيا مثريا . أما إذا أبيت أن تستجيب لضراعتي وأغلقت بابك دون ولدي المسكين فإنني أبتهل إلى الله أن ينتقم منك على قساوتك ولكنني واثق من عطفك ورحمتك ولذلك أستودعك طالبا إلى الخالق أن ينزل عليك رحمته وأن يكلأك برعايته .

« غليوم جرانديه »

وطوى جرانديه الخطاب ثم دسه في جيب صداره وتطلع إلى ابن أخيه في رفق وهوادة وسأله :

ـ إذا كنت متعبا يا ولدي ففي وسع نانون أن تدلك على

غرفتك ، وهي ليست أنيقة كما يمكن أن تتصور ولكنك تلتمس العذر لعطاف كروم لم تبق الضرائب على شيء من مواله

ونهض الحاضرون يستأذنون في الانصراف . وإذ استندت السيدة كريسان إلى ذراع السيد كريشوه همست له :

ـ سيلاحظ الفتى ديفاطل .

ـ إن لنا الآن عدوا مشتركا يجب أن نحذره .

ولما انصرف الضيوف التفت جرانديه إلى ابن أخيه يحدثه :

ـ إننا الآن في ساعة متأخرة من الليل . وسنختلف وقتئذ ملائما في الغد لنتحدث في المهام التي جئت من أجلها . ونحن نفطر هنا في تمام الساعة الثامنة ونتغدى في الظهر بعض النهار وقليل من الخبز ونتعشى في الساعة الخامسة . وأنت حر كالهواء في أن تتنزه في المدينة أو الضاحية وستلتمس لي العذر إذا لم أستطع مرافقتك دائما وحذار من أن ترضى يتحدثون عن ثروتي الموهومة فإنني لا أكاد أملك شيئا غير أرض قاحلة وساعدين قويين وسترى في المستقبل كم تكلف الليرة التي يسيل عرقك في سبيل الحصول عليها .

ـ لا أظنني سأحتاج إلى شيء فقد حملت معي من باريس ما يلزمني . والآن اسمح لي أن أتمنى لك ولعمتي ولابنة العم العزيزة ليلة طيبة ونوما هادئا .

ـ سأرشدك إلى طريق مخدعك

ومضت (نانون) تغلق الباب الخارجي وتطلق الكلب الكاسر الذي لا يألف غيرها . وغمغم شارل مشدوها :

ـ يا للشيطان ! لماذا أرسلني أبي إلى هذا المكان ؟!

(٢)

وفي الطابق الاعلى غرفة لا يسمح جرانديه لغيره أن يتخطى عتبتها لأن بداخلها مخابئه السرية وموازين الذهب ودنانير ذلك البخيل . وفيها يضع خطط هجومه وينظم حساباته بدقة يعتقد معها المتعاملون معه أن روح الشيطان تؤازره ! وفي مواجهة هذه الغرفة مخدع يوجيني وإلى جانبها حجرة والدتها الخاصة بحيث لا يفصلهما غير حاجز من الزجاج . وفوق غرفة الاب حجرة في الطابق الثاني أعدها لابن أخيه شارل تسكن يعرف سكناته وعدواته .

وتطلع الشاب حواليه الى الجدران المغطاة بالورق البالي والى الاثاث العتيق الزرى ثم سأل نانون الكبيرة :

ـ على أنا حقيقة لدى السيد جرانديه رئيس البلدية سابقا وشقيق السيد غليوم جرانديه الباريسي ؟!

ـ نعم يا سيدي . هل أفرغ لك محتويات حقيبتك ؟ .

ـ خذي هذا المفتاح وهاتي (بيجامتي) منها

ودهشت نانون اذ وجدتها من الحرير ذات رسوم بديعة فهتفت :

ـ أترتدي هذا الثوب عند نومك ؟ سأسرع وأنادي الآنسة يوجيني لتراك وأنت ترتديه !

ـ صه يا نانون ودعيني لانام بهدوء . ومادام هذا الثوب يعجبك فسأتركه لك عند رحيلي .

فتسمرت نانون في مكانها تتساءل :

ـ يعطيني هذا الثوب الجديد ؟!! انني أحلم بلاشك . أو هو الذي يحلم !

ثم غمغمت قائلة :

ـ طابت ليلتك يا نانون

ـ طابت ليلتك يا نانون

وتمدد الشاب على سريره يتساءل بدوره :

ـ ماذا جئت أعمل في هذا المكان ؟ وماذا قصد والدي بذلك؟

وفي تلك الاثناء كانت يوجيني تقطع صلواتها متمتمة : آه كم هو جميل أيتها القديسة العذراء ، أما والدتها فكانت تسمع وقع خطوات زوجها وهو يذرع أرض غرفته جيئة وذهابا وهي تنظر الى زوجها وسيدها ورب بيتها نظرة كل امرأة ريفية جبية . وأما زوجها فكان مبلبل الخاطر يحدث نفسه :

ـ أي فكرة عجيبة طرأت على بال أخي فجعلته يورثني ولده ؟ يا له من ارث بديع ؟! لست أستطيع أن أدفع له غير عشرين ليرة فماذا تفعل لهذا المدلل الانيق الذي أخذ يلقي نظرة ازدراء على كل ما يراه في بيتي ؟!

وفي ذلك الهزيع من الليل كانت نانون تهمس الى نفسها شبه حالمة :

ـ سيكون لي هذا الرداء الذهبي الفاتن بالنقوش المعشقية الزاهية !

ونامت يوجيني تحلم بالحب وبحياة الفتيات الباريسيات التي تمضي على وتيرة رتيبة ونسق واحد والشمس تسكب خلالها ألقى أشعتها في نفوسهن ، والازهار توحي الى مخيلاتهن أروع التصورات . وخفقات القلب تدفع العقل الى التفكير في أبدع

الآراء ثم تبتسم الفتاة عند أول عاطفة تنتابها .

ونهضت (يوجيني) من نومها مبكرة كما تفعل الفتيات القرويات ثم وقفت تتزين أمام المرآة وترتب جدائلها الطويلة . وغسلت وجهها عدة مرات وهي تتساءل ماذا يفعل ابن عمها حتى اكتسبت ذراعاه هذا النقاء وأظفاره المصقولة هذا الجمال !؟ ثم احتذت أجمل أحذيتها حتى اذا اطمأنت الى زينتها جلست الى نافذتها تستمع الى دقات الساعة السبع . ولأول مرة ترى كل شيء امامها جميلا رائعا . ثم فتحت باب غرفتها ومدت عنقها تصغي الى حركة الدار وهي تردد :

– انه لم يستيقظ بعد !

ثم راحت تكنس الحجرة وتوقد النار وهبطت أخيرا نحو نانون التي كانت تحلب البقرة فقالت لها :

– ارجوك يانانون الطيبة ان تضيفي زبدة لقهوة ابن عمي

فضحكت نانون ضحكة رنانة وقالت :

– وهل تنبهينني الى ذلك !؟ ان ابن عمك غاية في الجمال . آه لو رأيته وهو يرتدي عباءة من الحرير

– اعملي لنا كعكا اذن

– ومن اين لي حطب الفرن والسمن والدقيق ؟ أيجب أن نسرق أباك لنحتفل بابن عمك ؟ اطلبي منه سمنا وخشبا وطحينا فهو أبوك وقد يعطيك ما تطلبين . انظري .. ها هو قد أتى ..

ولكن يوجيني هربت الى الحديقة عندما سمعت قدميه تهبطان الدرج كانما تخشى ان يقرأ والدها سرها في أساريرها . وكانت ترغب في أن تقول شيئا لابن عمها ولكنها لا تدري ما هو . وأخذت لأول مرة في حياتها تستشعر الخوف عند رؤية أبيها ثم اسرعت الخطى وهي تعجب اذ تستنشق الهواء أكثر عذوبة من قبل !

وقامت مشادة بين نانون وسيدها عندما سألته ان تصنع كعكا لابن أخيه وصاح بها :

– تريدين ان تقوديني الى الخراب بسبب مجيء ابن أخي ؟ ماذا يدور في رأسك !؟

– وبماذا يحلي ابن أخيك قهوته ؟

– سأعطيك قطعتين من السكر !! سأستغني له عن قطعتين !

– والكعكة ؟ ان يوجيني تريد كعكة

– حسنا . حسنا . خذي

ثم فتح خزانة الطحين متأففا وأعطاها قبضتين ثم وزن لها أوقية من السمن

وعادت نانون القاسية تقول :

– يلزمني حطب لايقاد الفرن

فأجابها القروي بصوت حزين :

– ولكن يجب أن تصنعي لنا فطائر من الثمار وأن تطهي الطعام على الفرن كي لا تضطري الى ايقاد نارين .

– لست في حاجة الى من ينبهني الى هذا

فرمق (ردزيره) الأمين بنظرة شبيهة محبة . وعندما لمح ابنته هتف بها :

– تعالي يا ابنتي لنتنزه على شاطيء اللوار الى حقولي حتى يحين موعد الفطور

وقابلهما في الطريق كريشوه فحياها ومضى يتحدث الى جرانديه ثم ما لبث ان روع الفتاة عندما قال لوالدها :

– حسنا . لقد استقدمت صهرا من باريس . وقدوم ابن أخيك أصبح حديث كل من في سومور فاحتاطه في حزم :

– ثق يا صديقي العجوز انني أفضل أن أرمي فتاتي في نهر اللوار على أن أعطيها لابن أخي . وفي وسعك أن تعلن هذا لمن تحلو لهم الثرثرة .

اذن مات أمل يوجيني في مهده !! اذن قضي على الرجاء الذي نما في خلبها وازدهر وتفتحت أكمامه !! وكيف تخبو في صدر والدها عاطفة الابوة وصلة الرحم ؟! وأي جريمة قارفها شارل !؟

* * *

وعندما عادا كان الفطور مهيا ولكن يوجيني جرت الى أمها ترتمي في أحضانها وتنتفض بالاسى وتغمغم قائلة :

— هل استيقظ ابن العم ؟

فأجابتها وهي تربت على ظهرها :

— لندعه يتم ملء جفنيه قبل ان يستيقظ ليسمع أسوأ الاخبار .

— ماذا حدث يا اماه ؟ هل قال لك أبي ؟

— ان أباه قد أطلق رأسه بالرصاص .

— عمي !!

— نعم . وهكذا أصبح الشاب يتيما ..

فقاطعها جرانديه :

— ومسكينا لا يملك شروى نقير .

فراحت يوجيني تنشج بالبكاء ونهرها والدها قائلا :

— اذا كنت تبكين من أجل هذا الانيق الاحمق فاحتفظي بدموعك لانه عما قريب سيمضي الى الهند ولن تريه بعد ذلك .. أبدا

— آه يا أبي ! انني أرثي لحاله .

ثم رقأت دموعها بعد قليل وجعلت تعد الفطور والقهوة بيديها لابن عمها . واستيقظ هذا يتلفت حوله مترنما بانشودة مشجية ثم هبط اخيرا في الساعة الحادية عشرة يقول :

— لعلك قضيت ليلة هانئة يا امرأة عمي ؟ وأنت يا ابنة العم ؟

— نعم . شكرا . وأنت ؟

— نمت نوما مريحا .. جدا .

— يجب أن تكون قد جعت .

— أنا لا أفطر يا ابنة العم قبل الظهر ويخيل لي انني بكرت في الاستيقاظ ! يكفيني الآن دجاجة فهتفت نانون : يا سيدتي العذراء !! لدينا بيض طازج وزبد .

— حسنا . سأعوض ذلك في الغداء .

وبعد أن انتهى من افطاره وشرب القهوة طرق الباب فصاحت يوجيني مرتاعة :

— هذا أبي !

ولم يدر الشاب سر صيحاتها الواجفة ! ودخل جرانديه يستدر ابن أخيه قائلا :

— ها قد انتهيت من افطارك . تعال فان لدى أنباء لك .. لا تسر

فهتفت يوجيني : تشجع يابن عمي .

واذ ذاك جهد الشاب في مكانه ثم سرعان ماتبع عمه والقلق ينتهبه . ولم يكن عسيرا او صعبا على جرانديه أن يفضي لابن أخيه بخبر فقد أبيه ولكنه تردد قليلا عندما أراد أن ينهي اليه انه أصبح معدما . وكم كانت دهشته عندما وجد قلب الشاب يكاد ينفطر لموت والده وأنه لا يابه بأن غدا فقيرا ولا يبالي انه فقد ثروته .

وارتفع عويل شارل وانزوى على نفسه في مخدعه يتلوى بالالم والحزن بينما أخذ جرانديه يهمس في أذن فتاته :

— لقد أفلس أبوه .

— ماذا تعني يا أبي ؟

— الافلاس سرقة لا يسكت عنها القانون . هناك أشخاص استأمنوا أخي ليحفظ أموالهم فبددها جميعها ! ان السارق

اقل خطرا من النفس فالاول يستطيع ان يظهر ويدافع عن نفسه اما الذي فيحتني وقد فقد شرفه الى الابد .

– ألم تكن تستطيع انقاذه يا أبي ؟

– انه لم يستشرني وفوق ذلك كان مدينا بأربعة ملايين من الفرنكات وهي دين باهظ لا ينفع فيه دواء .

– وماذا قررت في شأن ابن عمي ؟

– سيذهب الى الهند تحقيقا لرغبة والده علّه يستطيع جمع ثروة .

– وهل لديه من المال ما يمكنه من الذهاب الى هناك ؟

– سأدفع له نفقات السفر الى نانت

– ما أطيب قلبك يا أبي !..

وتبللت بمنته تحتضنه فاستيقظ ضميره قليلا .. وهتفت الفتاة بأمها :

– يجب أن نكلف القس يا أماه بالقراءة عن روح عمي ..

فاجابتها بلهجة الحزن والاكتئاب :

– هذا ما كنت اعول عليه ..

فصاح جرانديه :

– حسنا ! دائما اموال تبعثر ، أتعتقدين اننا نملك المئات والآلاف ؟..

ومضى الى الخارج محنقا فتنفست يوجيني وأمها الصعداء وقالت يوجيني :

– لنذهب للتعزية ثم نسرع بالنزول اذا طرق الباب ..

– حاذري يا ابنتي أن تتورطي في حبه ..

– حبه ؟.. آه لو عرفت ما قاله أبي ؟

وجرت تصعد الدرج الى ابن عمها تعزيه فصرخ باكيا :

– دعيني يا ابنة العم .. ان مصابي لايحتمل أي تعزية .

* * *

وفي الساعة الرابعة عاد جرانديه يفرك يديه مغتبطا بأرباحه ثم سأل :

– اين الولد ؟ الم ينزل بعد ؟ ماذا يفعل ؟

فاجابته يوجيني :

– انه يبكي اباه مر البكاء ..

فصعد الى غرفته يتصفح مرة أخرى (الجريدة) التي وصلت مصرع أخيه ثم أخذ يحسب ربحه لو اضطلع بانقاذ الموقف وأوقف الدائنين عند حدهم باخذه الامر على عاتقه وهم لا يهمهم سوى أن تكون أموالهم مضمونة بطريقة ما ، وهو سيكفل لهم هذا الضمان .. وأخيرا انتهى الى انه سيربح من هذه العملية الف وخمسمائة فرنك في خلال سنتين .

وعندما اعد له العشاء وجلس الى المائدة قالت له زوجته :

– يحسن أن نرتدي ثوب الحداد ياصديقي .

فأجابها مغيظا :

– أنت لا تتركين سبيلا الى الاسراف والتبذير الا مهدته ان الحداد في القلب وليس في الثياب ..

– انه أخوك والكنيسة تأمر بأن ..

– اشتري أنت ثياب الحداد من نقودك وسأكتفي انا بشال أسود ..

ثم انتهى من تناول طعامه وقال :

– سأصعد لأرى هذا الابله الذي يضرب عن الاكل .

ووقفت زوجته وابنته على طرف الدرج تستمعان الى الحديث بينهما :

– طبيعي أن يحزن الولد على والده ياشارل ولكن تشجع فهذا قضاء لا مرد له . أتريد أن تشرب كأسا من الخمر ؟ ان الخمر لا يكلفنا شيئا . سأوقد لك المصباح ..

ولما شاهد شمعا سأل نفسه محنقا :

ـ من أين يصيدون الشمع ؟ ان هالة السماء بحرقى حتى سقف البيت ليقلني بيضا لهذا الولد !

وهبط ليؤنب زوجته وكانت قد اسرعت الى غرفتها فصاح بهـــا :

ـ اعثرت على كنز يا امرأة ؟! .

فاجابته وهى تتظاهر بالصلاة :

ـ انتظر قليلا يا عزيزى .. انتظر لانني أصلى

فصاح بها راعدا :

ـ ليذهب الشيطان بالهك الطيب !.

ـ انني اصلى من اجلك انت

ـ حسنا . سنتحدث في الغد

٣

استيقظت (يوجيني) في فترات متفاوتة من الليـــل تذهب خلالها الى باب غرفة ابن عمها وتستمع ان زفراته الحارة وهى تحسبه سيقضى من الالم والجوع . وفي الفجر تناهت اليها زفرة قوية من قلبه جعلتها ترتدى ثيابها على عجل وتقترب من غرفته .. وكان بابه مواربا فتغلبت عليها عاطفتها ووجدت نفسها عند رأسه . ورأته يحلم كما يحلم ذوو المعدات الخاوية . وفاضت دموعها وانشجت في بكائها وهى تتأمل وجهه الحزين الفاتن . واحس شارل بوجودهـــا ففتح مقلتيه متمتما :

ـ اعذريني يا ابنة العم فانني لا اقوى على النهوض وأوثر الانفراد بعد ان فقدت أعز مخلوق لدى ..

فاجابته :

ـ ان الى جانبك قلوبا تسمعك وتحنو عليك يا شارل . يجب أن تنام .

ـ هذا حقيقى

ـ اذن الى اللقاء

وهربت عائدة وهى لاتدرى من أين جاءتها الجرأة على ان تقتحم غرفة شاب ؟ ! وفى الساعة العاشرة صباحا عادت الى غرفته تقول :

ـ هل استيقظت يا ابن العم ؟ أتريد ان تفطر فى الردهة أم فى غرفتك ؟

فرنا اليها باسما شاكرا وقال :

ـ كما تريدين

ـ كيف تجد نفسك ؟

ـ اخجل ان اخبرك ان الجوع يكاد يقتلنى

ـ اذن ساحمل لك فطورك الى غرفتك .

***

وعاد والدها من الخارج متهلل الاسارير وخلفه خـــادم يحمل ارنبا وطيورا اصطادها ثم قال :

ـ قد دعوت اثنين من آل كريشوه

ففغرت زوجته فمها مشدوهة لا تصـــدق أذنيها ! !

واستطرد جرانديه يقول :

ـ اصنعوا عشاء جيدا .

وهمست الام فى اذن ابنتها يوجينى :

ـ هذه ثالث مرة بعد زواجى يدعو فيها ابوك أحدا !

وفى نحو الساعة الثالثة هبط شارل شاحب الوجه فاتنه . وزاد حب يوجينى له ما يلقاه من شقاء . وهكذا بين المرأة و (الملاك) شبه يجعلها حليفة البائسين . وانزوى الشاب عند ركن من النضد الطويل ولكن نظرات (يوجينى) كانت تتشمله بين الفينة والاخرى من افكاره الحزينة

واعتزم آل كريسان زيارة جرانديه في نفس المساء ليعزوه في مصابه وليعرفوا ماذا دفعه لدعوة آل كريشوه في مثل هذه الظروف . وفي الساعة الخامسة بدأ الأكل فلما انتهى نهض شارل يقول :

— اسمحوا لي ان انسحب لان علي ان اكتب طويلا

ولما خلا جرانديه بضيفيه وأمن أن أوت زوجته وابنته الى غرفتيهما تحفز للفراغ من مهمته . وتذكر اذ ذاك الظروف التي حدت به الى التظاهر بالتلعثم وثقل السمع وهو خير من يتكلم ويسمع : لقد خدع لاول مرة في حياته من رجل يهودي بارع كان يتظاهر بالصمم والتلعثم . كان يضع دائما يده على أذنه لدرجة جعلت جرانديه يشفق عليه وينهي اليه كلماته وأفكاره ويتكلم كما يطيب للاسرائيلي .وخرج السيد جرانديه من هذا الاجتماع وقد عقد صفقة ظل يندم عليها طوال الحياة ولكنه استفاد درسا لم ينسه مطلقا فيما بعد . وهكذا راح جرانديه يبارك هذا الرجل الذي علمه كيف يرهق خصمه ويضجره وبهذا ينسيه خطته التي اعتزم انتهاجها !! وفوق ذلك فليس ثمة مهمة تتطلب التعتمة أكثر من مهمته الحاضرة التي يجب أن يغطيها بستار من الغموض .

— أظن .. الافلاس .. يمكن ان يوقف .. بواسطة المحاكم التجارية .. نفسها ؟

فأجابه الحاكم :

— يجوز عندما يكون المدين رجلا محترما مثل أخيك فان المحكمة عندئذ تخول تصفية الاعمال المزمع اعلان افلاسها . والتصفية تختلف عن اشهار الافلاس

— نعم . نعم . لم افكر قط في هذا . ان التصفية يمكن ان تتم بذلك دون الالتجاء الى المحكمة خصوصا اذا قام رجل محترم فكفل للدائنين اموالهم .. وحال دونهم ودون المطالبة العاجلة بها .. وبذلك يتوقف اعلان الافلاس .. ويشرع الرجل المسئول في التصفية

— انك لو فعلت هذا تقوم بعمل يشرفك ويحفظ اسم عائلتك

— ولكن هذا يتطلب نفقات كثيرة ووقتا كبيرا ، واعمالي لاتسمح لي بمغادرة سومور

ان لك أصدقاء مخلصين يستطيعون معاونتك في هذا الامر . أرسل واحدا الى اكبر الدائنين ليقول له ان اخ الراحل غني ويرغب في تصفية اعمال أخيه بدل الالتجاء الى المحاكم والا لافائدة من مقاضاة مفلس مات . واذا كنت تستطيع السفر فانني مستعد ان اذهب الى باريس وان اتفق مع دائني أخيك بعد ان تقدم لي أموال التصفية وقيمة المصاريف التي يمكن ان أكابدها في سفري هذا .

— شكرا . سننظر في هذا

وطرق الباب اذ ذاك وقدم آل كريسان وفي مقدمتهم كبيرهم يقول :

— جئنا نبدي أسفنا للحادث المؤلم الذي ذهب ضحيته أخوك غليوم جرانديه .

فأجاب صاحب الدار متظاهرا بالاكتئاب :

— كان من الممكن الا يحدث هذا لو ان غليوم جا الي .

والبركة في كريشوه الذي قرر ان يذهـــب الى باريس للاتفاق مع الدائنين اتفاقا ملائما

استبدت الدهشة بآل كريسان وقال السيد لزوجته:

- الم اقل ان جرانديه سيهتم بشرف أخيه اذ ماقيمة المال بلا شرف ؟!

ثم التفت الى جرانديه يصافحه في حرارة ويقول :

- انني رجل عسكري ولا أعرف تنميق فكرتي ولكنني اصارحك بأن هذه فكرة بديعة للغاية مهما كلفت غاليا . هذه عملية تجارية بحت وتحتاج الى تاجر حاذق . وانا ساذهب الى باريس في بعض الاعمال . واستطيع ان ..

- سنرى .. سنرى

ونهض جرانديه يسحب كريسان من يده الى ركن قصى ويهمس اليه :

- ان ثقتي بك اكبر من ثقتي بالمحاكم . ارجو الا تذكر شيئا من هذا لآل كريشوه . وربما انك ذاهب الى باريس. فارجو ان تلقى نظرة على مخلفــات اخي وان تتصرف في القضية بمعرفتك

- اتفقنا . اعتمد علي

ثم عاد كريسان يقول بصوت عال يسحق به قلوب آل كريشوه :

- سأسافر غدا في عربة البريد وسأتلقى تعليماتك في الساعة الخامسة قبل العشاء . الى اللقاء

* * *

- ٤ -

تناهت الى سمع يوجيني زفرة شقت الجدران فاسرعت ترقى الدرج وهي تغمغم قائلة :

- انه يتألم !

وأوصلتها الزفرة الثانية أمام باب غرفته ووجدت الشاب نائما على مقعده وقد خرج رأسه عن كرسيه وسقطت الريشة من يده على الارض وأمامه خطابات كان يكتبها . وقــرأت عناوينها : الى السادة فارى .. الى السيد بولون .. الخ .. فقالت :

- لقد رتب أعماله ليسارع الى مغادرة فرنسا .. الى الهند .

ووقعت عيناها على كتابين آخرين ابتدأ احدهما بكلمتي « عزيزتي آنيت » فتسمرت في مكانها وخفق قلبها ثم راحت تقرأ برغمها :

« ما كان يمكن ان يفصلنا شيء لولا هذا الشقاء الذي هبط على والدي لم يكن أحكم الناس يستطيع التكهـــن بحدوثه . لقد انتحر ابي وتبخرت معـــه ثروته وثروتي وأصبحت يتيما في شرخ حياتي ولكن يجب أن أقوم من الهوة التي تردبت فيها وان كنت لا أملك مائة فرنك أذهب بها الى الهند أو أمريكا لتجربة حظي . نعم سأطلب الثروة في بلاد طقسها قاتل بعد ان غدت اقـــامتي في باريس مستحيلة . سأسافر كبحار صغير متشبها بالعباقرة الذين كانوا لايملكون شيئا ثم عادوا من الهند أغنياء .. ان مناخ الهند يقـــرب

الاوروبى بسرعة من الشيخوخة . واذا عدت بعــــد عشر سنوات فستكون فتاتك قد تزوجت . وكذلك صارحـــت بانى وجدت هنا فى سومور ابنة عم ذهبية القلب يخيل لى أنها .. و .

وخيل الى يوجينى والفرح يستخفها ان الاعياء والنوم غلباه عند هذه الكلمة فاستسلم لهما فى مقعده .

ثم القت نظرها على الخطاب الآخر وقرأت فيه :

« عزيزى الفونس

« فى الوقت الذى تقرأ فيه هذا الخطاب أكون قــــد فقدت جميع الاصدقاء عداك . لم أعد املك شيئا وساسافر الى الهند ، وقد كتبت لجميع من يدينوننى وستجد مع هـذا جدولا بأسمائهم على قدر ماسمحت به الذاكرة فأرجو ان تبيع مكتبتى وعرباتى وخيلى .. لعلها تفى بعض ديونى لهم ... وارجو ان ترسل لى جميع أسلحتى وأن تحتفظ لنفسك بكلبى فان أحدا لن يدفع ثمنا معقولا لهذا الحيوان الامين » .

فهتفت يوجينى حزينة كليمة الفؤاد :

ـ يا ابن العم العزيز !!

ثم جرت الى غرفتها تحمل شمعة مضاءة حيث تحت بعض الادراج واخذت محفظة كبيرة من المخمل الاحمر ورثتها عن جدتها وراحت تحصى مابها من عملة ذهبية وفضية قديمة وحديثة وتحصى قيمتها ثم قالت باسمة :

ـ خمسة آلاف وثمانمائة فرنك !

وصعدت دون تردد الى ابن عمها الذى شعر بها وفتح عينيه مشدوها فتقدمت تقول بصوت مؤثر :

اغفر لى خطيئتى يا شارل ! ان الله سيغفرها لى لقد قرأت خطابيك ...

فاحمر وجه الشاب وسألها :

ـ لماذا صعدت ؟ لماذا ؟ !

ـ خذ هذه النقود . أتوسل اليك الا ترفضها . فلك انك ستقبلها منى حتى تعود من الهند ..

وجثت تضرع اليه :

ـ لن أقوم من هنا حتى تأخذ هذه النقود . انها خمسة الاف وثمانمائة فرنك أرجوك ..

فانحدرت دموع الشاب على يدى ابنة عمه ورفعها عن الارض ثم قال :

ـ حسنا ، لقد قبلت

وقام الشاب يخرج من حقيبته صندوقا صغيرا مربعا مغطى بالجلد ثم قال :

ـ هنا شىء ثمين كحياتى . هذه علبة قدمتها لى والدتى . ولو انها قامت من قبرها لباعت مابها من الذهب فى هـــذا الظرف ولكننى لا استطيع . سأتركها امانة لديك .

وفتح العلبة عن قطع قديمة من الذهب وصورة لوالدته محاطة باللآلىء واخرى لوالده ثم قال :

ـ احتفظى بهذه الوديعة امانة حتى أعود . أمــــا اذا هلكت فهذا كله ملك لك وحدك وأخذ يدها يقبلها ويقول :

- هل والدك فقير كما يدعى ؟
- كلا انه غنى .. جدا ولكنه ..
- وهل هذه حياة الاغنياء ؟ !
- اذهب ونم فانت متعب

وفي اليوم التالي شاهدت السيدة جرانديه ابنتهـــا تتنزه مع شارل في الصباح قبل الافطار ولكن الفتاة قالت تبدد وجومها : ان ابي ذهب ولن يرجع الا عند العشاء . سيبيع ذهبه في السوق .

* * *

وجاء كريسان ليتلقى أوامر جرانديه عنـــدما التأمت الاسرة امام المائدة . وقال شارل بادى القلق :

- اهناك أمل يا عمى فى تسوية الامور ؟

فصاح جرانديه منفعلا :

- ألست ابن اخى ؟ ان شرفك هو شرفنا . الا تسمى جرانديه ؟

فنهض شارل يعانق عمه ثم مضى الى غرفته موزع القلب بين الاسى والارتياح . وتأملت يوجينى اباها فى اعجـــاب وتقدير وخاصة عندما قال :

- وداعا يا سيد كريسان . تغلب على اولئك الناس من أجل سمعة أخى وسمعة العائلة .

وتصافح الدبلوماسيان ثم قاد المضيف العجوز صديقه الى الباب . ولما عاد الى مقعده قال لنانون :

- هاتى قدحا من « الكاسى »

وكان بادى السرور والاغتباط فقالت نانون :

- هل احضر قدحين لسيدتي والآنسة يوجيني ؟
- آه انني لا أمانع أبدا في شرب الكاسى ، فان السيدة جرانديه تصنعه صناعة تفوق صناعة الحوانيت
- ذلك لانهم يضيفون له هناك كثيرا من السكر ، وهذا يفقده نكهته .

وانبرع الشتاء بتمكين العلاقات بين السيدة جرانديه ويوجيني وشارل . ولقد انجذبت نانون نفسها نحوهـــم دون ان تشعر . فبدا هؤلاء الاربعة يؤلفون وحدهم عائلة مستقلة . أما من جهة جرانديه الذى اطمأن الى ان شـــارل سيسافر بعد قليل وانه لن يدفع له الا نفقات السفر الى نانت ، فانه كان قد نسى اهتمامه بوجود شارل فى المنزل ، بعد ان ترك الولدين (هكذا كان يسمى شارل ويوجيني) ، يتصرفان كما يحلو لهما تحت رعاية السيدة جرانديه التى كانت ثقته بها عظيمة من ناحيتى الخلق والدين .

ولقد بدأ شارل يحب هذا البيت الذى لم تعد تدهشه عاداته . فكان ينزل منذ الصباح ليستطيع التحدث مع ابنة عمه قبل مجىء جرانديه لتسليم حاجات البيت . وكـــان يسارع بالهرب الى البستان عند سماعه وقع خطوات الاب . وقد كانت هذه الحياة البسيطة شديدة الشبه بحياة الاديرة حيث جمال النفوس الساذجة التى تجهل العالم وخداعــه والتى لم يكن يعتقد بوجودها الا فى القصص الخيالية .

وبعد ثلاثة أيام قاد جرانديه ابن أخيه بعظمة وزهو الى

المحكمة حيث اعلن شارل تنازله عن أرث ابيه وحرر توكيلين لمسيو كريسان والآخر لصديقه الفونس الذي كلفه بتصفية ديونه • ثم انتهى من الاجراءات الخاصة باخراجه جــواز سفره وأخيرا عندما وصلت ثياب الحداد البسيطة التي كان قد أوصى عليها في باريس ، احضر خياطا من سومور وباعه بعض الأثواب التي لم تعد تلزمه • ولقد اعجب هذا العمل الاب جرانديه اعجابا لاحد له فقال :

ـ هانت قد اصبحت رجلا حقيقيا يريد ان يســـافر ليجني ثروة بجده

فاجابه الشاب :

ـ ارجو أن تعتقد انني استطيع أن ألبس بكل حـــالة لبوسها •

ـ ما هذا ؟ ؟ وقال جرانديه وقد برقت عيناه عندما قدم له شارل قبضة من الذهب :

ـ سيدي ، لقد جمعت أزراري وخواتمي وكل الاشياء التي لم تعد تلزمني والتي يمكن ان يكون لها قيمة • وبما انني لا اعرف أحدا في سومور أردت ان أرجوك أن ••

ـ اشتريها منك ؟

لا لا • • ان أرجوك أن تدلني على رجل شريف • •

ـ اعطني هذا الذهب لاصعد وأقدر لك قيمته الحقيقية

ثم مد البخيل يده الواسعة وأخذ الذهب ثم صــعد الى غرفته وخاطب الشاب يوجيني :

ـ أقدم اليك يا ابنة العم هــذين الزرين الماسيين • كذكرى بسيطة

وهذه يا امرأة عمي ، حلية من الذهب كنت أحتفظ بها كتعويذة في سفري وهي من مخلفات والدتي اقدمها لك بكل سرور •

ـ لايمكنني أن أشـــكرك ياولدي العزيز ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت : ساصلي من اجلك صباح مساء •

وعاد جرانديه يقول :

ـ ان ذهبك يساوي تسعمائة وثمانين فرنكا وخمسة وسبعين سنتيما • وسادفع لك ثمنه من جيبي الخاص كي اوفر عليك عناء بيعه •

ـ لم أكن أجرؤ ان اقترح عليك هذا الامر ولقد وفرت علي عناء بعثرة مجوهراتي في أسواق سومور وقد قال نابليون « يجب ان نغسل ملابسنا في داخل منازلنا » والآن يا عمي العزيز ، ان امرأة عمي وابنة عمي قد تفضلتا بقبول تذكار بسيط مني ؛ فارجوك ان تتقبل هذه الازرار الذهبية لك والتي لم تعد تلزمني

يجب الا تتعرى هكذا يا بني !! ماذا تحملينني يا امرأتي ••• فالها من حلية جميلة !! •• وانت يا يوجيني ؟ لؤلؤتان من الماس !! حسنا سأتقبل أزرارك يا ولدي ، ولكن ••• ستسمح •• لي •• بدورك أن أدفع تكاليف سفرك الى الهند نعم أريد ان ادفع تكاليف سفرك • وذلك لاني عندما قدرت قيمة جواهرك لم أنظر الا الى الذهب الخاص • وهناك شيء يمكن اضافته نظير النقش والفن • ســـأدفع لك اذن الفا وخمسمائة فرنك اقترضتها من كريشو لانني لا أملك فرنكا الآن ، الا اذا جاء (حنا) ودفع لي ثمن الجبن المتأخر • هاانذا ذاهب لرؤيته •

وقالت يوجيني وهي ترمي ابن عمها بنظرة ملأى بالكآبة والاعجاب : ستذهب اذن .

ـ يجب ان أفعل

وعندما انفرد شارل بابنة عمه في البستان قال لها وهو يجذبها الى المقعد الهرم تحت شجرة الجوز :

ـ لقد جاءني خطاب من الفونس ، ولقد احسن التصرف فهو قد رتب أعمالي بحكمة واخلاص . لم أعد مدينا لاحد بفرنك واحد . وقد ارسل لي صديقان عشرة الاف فرنك ستساعدني كنقطة ارتكاز . ولن استطيع التفكير في الرجوع قبل بضع سنوات . وارجوك ياعزيزتي الا تضعي مستقبلك ومستقبل في كفتي ميزان ، فربما حدث لي حادث ، كما انه من المحتمل ان يتقدم اليك طالب غني .. فسألته يوجيني مقاطعة :

ـ أتحبني ؟؟

ـ أوه كثيرا . فقالت وهي تحاول منع ابن عمها من احتضانها

ـ سانتظر اذن ... أوه شارل ، يا الهي ان ابي قرب النافذة ثم سارعت بالهرب ، وتبعها شارل الى طرف السلم حيث فتحت باب الردهة ثم دخلت ومالبثا أن وجدا نفسيهما بالقرب من مرقد نانون ، في المكان الاكثر ظلاما من الممر . وهناك أخذ شارل يد ابنة عمه ورفعها بلطف وهدوء الى شفتيه متمتما : عزيزتي يوجيني ، ان ابن العم خير من الاخ لانه يستطيع الاقتران بك

ـ ليكن هذا .

قالت نانون ذلك وهي تفتح الباب ، وارتعب الشابان وهربا الى الردهة حيث أخذت يوجيني وجلس شارل يطالع كتاب الصلوات الخاص بالسيد جرانديه .

وعندما أعلن شارل ميعاد رحيله أكثر جرانديه من حركاته

ليظهر لابن أخيه انه كثير الاهتمام به !! لقد كان كريما جدا بالاشياء التافهة التي لاتكلف شيئا ! ولما أراد شارل أن يستدعي نجارا ليصنع له صناديق ادعى جرانديه ان هذا الرجل كثير الطمع وقرر أن يصنع صناديق ابن أخيه بنفسه . وراح صباح كل يوم ينشر الخشب ويدق المسامير حتى توصل اخيرا الى صنع صناديق بديعة وضع فيها جميع أمتعة شارل ، وعمل بنفسه على تأمين وصولها الى نانت .

واخيرا سافر شارل . وقد ودعه على المحطة السيد جرانديه وزوجته والسيد كريشوه ويوجيني وعندما لم تعد الفتاة الواقفة على المرفا ترى ظل الباخرة التي اقلت ابن عمها ، استندت على صدر أمها باكية وهي تشهق : يجب ان يكون لدى الآن صبر الآلهة ياأماه .

٥

بمصرف فرنسا المعلومات الكافية عن جميع ثروات اريف الكبرى . ولذلك كانت اسماء دي كريسان وفلكس جرانديه معروفة بالثقة المالية التي توحيها أراضي زراعية واسعة وأملاك شديدة الخصب .

ولقد كان وصول صراف سومور ، لتصفية أشغال جرانديه الباريسي باعثا على الثقة في قلوب الدائنين . فرفع الحجز وانتهت الاجراءات الخاصة بالحوالة . ثم اجتمع الدائنون وانتخبوا دي كريسان رئيسا ، يساعده فرنسوا ومهدوا لهما جميع السبل اللازمة لانقاذ اسم جرانديه وانقاذ أموالهم ، وكان كل منهم يقول مطمئنا : سيدفع جرانديه القروي .

وبعد مضي تسعة أشهر وزع كريسان وزميله ٤٧٪ من مال كل دائن . ولقد تجمعت هذه القيمة بعد بيع أشياء بسيطة من محل جرانديه الباريسي . وقد حصلت هذه القيمة بامانة ودقة متناهيتين اعادت الى مخيلة الناس صورة الشرف

التي عرفوها عن عليوم جرانديه . وما لبثت الضجة أن هدأت
حتى رجع الدائنون يطالبون ببقية مالهم وكتبوا بهذا المعنى
الى السيد جرانديه الذي تلقى خطاباتهم بابتسامة هائلة ثم
ألقاها في النار وهو يردد :
ـ حسنا ، لقد وصلنا ، سترون ما يسركم يا أولادي
الصغار .

ولقد توصل جرانديه بوسائل مختلفة الى تهدئة الجميع
دون أن يدفع لهم فرنكا واحدا . ولقد قال أحد التجار مخاطبا
كريسان : ان هذا الرجل يهزأ منا ومنك .
ثم مالبث الجميع أن نسوا مصرع جرانديه الباريسي .
وقد تكهن جرانديه الريفي بهذه النتيجة عندما كان يقول :
ان الوقت شيطان خبيث .

وفي نهاية الشهر التاسع من السنة الرابعة أخذ جرانديه
يتملص من الدائنين بقوله أن ابن أخيه قد أصبح من الأغنياء
في الهند . وهو سيسارع بالرجوع ليدفع ديون أبيه بأجمعها .
وعندما ارتفعت أسهم محل جرانديه الباريسي ، وكان أخوه
قد اشترى قسما كبيرا منها ، ما لبث هذا الأخير أن باع
حصته (سرا بالطبع) وخرج من هذه الصفقة بما يقرب من
أربعمائة فرنك ذهبا .

* * *

في يوم من أيام الآحاد أخذت يوجيني تتذكار ابن عمها الذهبي
وراحت تستجلي صورته من خلال تقاطيع صورتي والديه وإذ
بها تفاجأ بأمها التي مالبثت أن اطلعت على سر المبادلة الرهيبة
التي حصلت بين ابنتها وشارل . فهتفت في هلع : لقد أعطيته
اذن كل شيء؟ ماذا يكون موقف أبيك في عيد الميلاد عندما يطلب

اليك أن تريه ذهبك ؟ .. وظلت الاثنتان طوال النهار تسبحان
في خوف مقيت . وقالت الأم واجفة :
ـ لو أطلعتني على سرك من قبل لكنا عملنا على تفادي
الامر بأية طريقة . كنا طلبنا الى السيد كريسان أن يرسل
الينا بعض القطع الذهبية . وعلى الرغم من أن اباك يعرف
قطعك جيدا فانه كان يمكن ..
ولكن من أين كان يمكننا الحصول على كل المال اللازم
لسفر شارل ؟ .
ـ كنت أعطيه من مالي الخاص ...
ـ لم يعد لدينا متسع من الوقت ، وعلينا أن نذهب غدا
ونتمنى لأبي عيدا سعيدا .
ـ ولكن يمكننا يابنيتي أن نطلب مساعدة كريشوه .
ـ لا لا .. والا جعلونى تحت رحمتهم ومنتهم . انني
احسنت عملا . ولست نادمة على ماقمت به ولتكن مشيئة الله .
ومع الخوف المسيطر على يوجيني أمها من الذهاب في
صباح اليوم التالي الى غرفة جرانديه وتحيته تحية العيد المعتادة
في مثل هذه المناسبات . وكان الثلج يغطي السطح والبرد
قارس . ومالبثت السيدة جرانديه أن خاطبت زوجها عند
سماعها لأول حركة بدرت منه بهذه الكلمات :
قل لنانون ، يا جرانديه ، أن تحمل قليلا من النار
الى غرفتي . ان البرد قارس ، وأنا في سن احتاج معها الى
قليل من العناية . وفوق ذلك ، فان يوجيني ستأتي الى هنا
لارتداء ثيابها .. وقد تتعرض لبعض الامراض اذا ارتدت
ثيابها في غرفتها الباردة . ثم سنذهب بعدها لنتمنى لك
عيدا سعيدا . . تا . . تا . . ماهذا اللسان؟ أهكذا تبدئين العام
الجديد أيتها السيدة ؟ انك لم تتكلمي في حياتك بهذه الكثرة .

– ثم مرت فترة من الصمت اعقبها الرجل بقوله وقد ازعجه اقتراح امرأته :

– ساعمل كما امرت أيتها السيدة . انت حقيقة امرأة صالحة ، وأنا لا أريد ان يحدث لك شيء في هذا السن .

– يبدو أنك مسرور في هذا الصباح ياسيدى .

– أنا مسرور دائما .

ثم قال الرجل وهو يدخل غرفة امرأته بثيابه الكاملة . نعم ان الطقس شديد البرودة وسنفطر فطورا جيدا يا امرأتي لقد أرسل لنا كريسان فطائر محشوة باللحم وساذهب لاحملها من عربة البريد . ويمكن ان يكون قد ضم اليها قطعة ذهبية من نوع « النابوليون » ليوجيني .

ثم أردف هامسا : لقد كان لدى أنا أيضا ذهب ، ولكن الاعمال اجبرتني على استبداله بنقود من الورق . يمكن ان اقول هذا لك أنت فقط .

ولكي يحتفل بالعيد على طريقته الخاصة احتضن امرأته وقبلها في جبينها .

وصرحت الام لابنتها بعد ذهاب زوجها : ان مزاج والدك هادىء في هذا الصباح وسنستفيد من هذا . مثل دور المقروزة

ونزل جرانديه وهو يفكر في استبدال دراهمه بليرات ذهبية . وفي لحظة دخوله الغرفة ، قامت المرأتان وتمنتا له عيدا سعيدا وسنة حافلة بالهناءة فقال يحدث يوجيني :

– ان كل تعبي من أجل راحتك ، الا لاحظين هذا لاغاية لي سوى اسعادك . ويلزمنا كثير من المال لنكون سعداء . خذي هذا « النابوليون » يا للشيطان لقد فرغ هذا البيت من

الذهب ولم يبق فيه سوى جواهرك . هيا احضري قطعك الذهبية لامتع ناظري برؤيتها .

فقالت الفتاة وهي ترتجف : ان الطقس بارد جدا لنفطر الآن .

– بعد الفطور اذن : .. ان رؤية الذهب تساعدنا على الهضم . اما كريسان فرجل طيب وأنا مسرور منه . كلي يا امرأتي العزيزة .

– أنا لست جائعة . انني مريضة .

– وكان انتظار الموت أهون على يوجيني وامها من انتظار الساعات التي ستتلو هذا الفطور الرهيب وعاد الرجل يقول

– احمل كل هذه الاشياء ، ولكن دعي هذه المائدة ، انها تساعدنا على تفقد كنزك اللطيف الصغير يا يوجيني الصغيرة ؟ .. انك تملكين ستة آلاف فرنك تنقص فرنكا واحدا ، اذا اضفنا « النابوليون الجديد » . وساعطيك هذا الفرنك كي تتم القيمة لانني أريد ان تعطيني ذهبك يابنيتي .. لم أعد أملك ذهبا .. لقد كان لدى في الماضي . أما الآن .. فستعطينني ستة الاف فرنك ذهبا ، واعدك عندها ان زوجك ، وسيكون هذا قريبا ، ان اقدم لك زوجا غنيا يعطيك من جميع انواع القطع الذهبية .

فاجابت الفتاة خائفة : انني لم اعد أملك ذهبا .

– لم يبق لديك ذهب ؟ ..

ووقف الرجل فجأة كحصان انطلقت بالقرب من أذنه ستة مدافع !

– لا لم يبق لدى ذهب .

– أنت مخطئة يا يوجيني .

– كلا . كلا

القسم أنتي .. وعندما كان جرانديه يتلفظ بهذا القسم كانت أخشاب البيت تهتز في مواضيعها .

وهمست نانون : يا الهي ، لقد أصبحت السيدة جرانديه شديدة الاصفرار ! وعاد الاب يزمجر :

ـ تا .. تا .. تا .. أنتم تتحدثون بهذه البساطة !! ماذا صنعت بقطعك الذهبية يا يوجيني ؟

فاستعطفته يوجيني جـــاثية : والدتي تتألم كثيرا ، أرجوك . لا تقتلها .

ارتعب جرانديه من الاصفرار الشديد الذي يملأ وجه امرأته التي قالت : تعالي يا نانون ساعديني على الصعود . انني أموت .. واستندت الام على ذراعي نانون ويوجيني ، اللتين لم تستطيعا الوصول بها الى غرفتها الا بعد كثير من العناء والجهد ، لانها كانت ترتجف ارتجاف الورقة في مهب الرياح العاتية .. بينما بقي جرانديه وحيدا ولكنه ما لبث أن صعد بضع درجات على السلم وصرخ مخاطبا يوجيني : عندما ترقد والدتك اهبطي الى ..

ـ نعم يا أبي .

ولم تتأخر يوجيني عن النزول بعد ان طمأنت والدتهـــا فابتدرها أبوها قائلا :

ـ أريد أن أعرف الآن أين كنزك يا فتاتي ؟

ـ اذا كنت يا أبي تقدم الي شيئا لا أستطيع التصرف فيه فارجوك أن تحبس عني كرمك

ثم أعطته (النابلون) الذي أخذته منه منذ قليل فتلقاه ووضعه بلهفة في جيبه ثم قال :

ـ لن أعطيك أي شيء آخر . أنت اذن تكرهين أباك !

أنت لا تثقين به ؟! أنت اذن لا تعرفين ما هو الاب .. ان لم يكن كل شيء لك فهو لا شيء .. أين ذهبك ؟

ـ أنا أحبك وأحترمك يا والدي برغم غضبك ، ولكنني أريد ان الفت نظرك الى انني بلغت الثانيـــة والعشرين من عمري ، وقد تصرفت في مالي كما أردت كما أعتقـــد انني وضعته في حرز حريز

ـ أين ؟ ؟ ؟

ـ هذا سري الدفين ـ الا أسرار لك ؟

ـ ألست رئيس العائلة ؟

ـ وهذا سري الخاص !

ـ انه سر سخيف هذا الذي تخفينـــه عن أبيك أيتهـــا الآنسة

ـ بالعكس ، انه عمل ممتاز ولكنني لا أستطيع البوح به لأبي

ـ قولي على الاقل لمن أعطيت ذهبك ؟

فأشارت يوجيني برأسها رافضة

ـ انه كان معك في يوم عيدك .. أليس كذلك ؟

ولكن يوجيني التي ورثت دهـــاء أبيها أعادت نفس اشارتها الاولى

ـ انا لم أر في حياتي عنادا شبيها بهذا العناد ولا سرقة شبيهة بهذه السرقة !! كيف ؟ هل سالك أحد هنا وفي بيتي الخاص مالك ولا أعرف من هو ؟ .. ربما يجوز للفتيات الشريفات أن يهبن سرا بعض الاشياء البسيطة وهذا يحدث في بيوت الامراء والنبلاء ويحدث في بيوت أمثالنا من الاغنياء البسطاء

ولكن اعطاء الذهب ٠٠ لمن أعطيت ذهبك ؟؟
ولكن لم تحر يوجينى جوابا فصاح كالمجنون : من رأى فتاة كهذه !؟ أنا والدك ؟

ـ ألست حرة التصرف فى مالى الخاص ؟

ـ ولكنك لا تزالين صغيرة !!

ـ بل قد بلغت سن الرشد ٠

صعق جرانديه لنطق ابنته ، توقف مبهوتا ثم ما لبث الشتائم أن أخذت تتدفق من شفتيه :

انزل عليك اللعنة أيتها الفتاة الشقية ٠ لقد عرفت شدة حبي لك واستغللتها أسوأ استغلال انك تقتلين أباك !! اقسم انك أعطيت ذهبك لابن عمك العاطل ٠ أنا لا استطيع حرمانك من ارثى ولكننى ألعنك انت وابن عمك ٠ ان هذا العمل لن يدر عليك أى خير ٠ أتسمعين ؟ ان كنت قد أعطيت شارل ٠٠ ولكن هذا غير ممكن ٠ ماذا ؟ هل سرقنى هذا الولد الفاسد ؟

وأنعم النظر فى ابنته التى ظلت صامتة ٠ فانفجر صائحا :

ـ ولكنك على الأقل لم تعطيه ذهبك دون مقابل ؟؟

فنظرت الى أبيها نظرة هزء اربكته دون أن تنطق بكلمة فقال :

ـ انك ابنتى يا يوجينى ، وتعيشين معى ٠ ورجال الدين يأمرونك بطاعتى انك تهينيننى فى أقدس شىء لدى اذهبى الى غرفتك وابقى هناك ريثما اسمح لك بالخروج وسنحمل لك نانون كل صباح شيئا من الخبز والماء ٠ هل تسمعيننى ؟! عجلى بالذهاب ٠

اجهشت يوجينى بالبكاء ثم اسرعت الى قرب امها التى قالت لها : لا تحزنى يا ابنتى العزيزة فان أباك سيهدأ بعد قليل ٠

ولكن جرانديه صرخ وهو يدخل الغرفة : هل حقيقة انني واياك انجبنا فتاة غير مطيعة كهذه الفتاة ؟ هيا الى السجن أيتها الآنسة ٠٠ الى السجن ٠

فقالت السيدة جرانديه وقد واجهت زوجها بوجه تلهبه الحمى : أتريد أن تقتلنى ؟

ـ خذيها واغربا عن وجهى كلتاكما ٠٠ غادرا هذا البيت ٠ يا للرعود والعواصف ! أين اختفى الذهب ؟!

فوقفت يوجينى ثم رمت أباها بنظرة زهو قائلة ثم دخلت غرفتها فقام واقفلها ثم وضع المفتاح فى جيبه ، ولما جلس بالقرب من امرأته قال لها : انها دون شك أعطت مالها لذلك الفاسد شارل ٠

وكانت السيدة جرانديه قد استمدت من الحوادث التى مرت ومن الخطر الذى يهدد ابنتها قوة خولتها الظهور بمظهر البرود وعدم التأثر فقالت وهى تنظر ناحية الشارع : أنا لا أعرف شيئا من كل ما ذكرت ٠ ان ابنتك أيها السيد بريئة كبراءة الطفل المولود ٠ وهى تحبك كثيرا وكان من الممكن أن توفر على هذا الازعاج وأنا فى هذه الحالة الصحية فارجوك أن تقلع عن عزمك هذا وأن تدع لفتاتك حريتها ٠

ـ لن أراها ولن أكلمها وستبقى فى محبسها مادمت غير راض عنها ٠٠ يا للشيطان ! ألا يحق لرب البيت أن يطلع على ما يجرى فيه ؟ ٠٠

ـ سيدى ان يوجينى وحيدتنا

ـ اذا كنت ترغبين فى اعادة السلام الى البيت فاجعل

ابنتك تعترف لك .. وأنا لن أعاقبها مهما تكن قد صنعت بنفسها .

— حسنا ! ولكن على عليها من السلطة أكثر مما لك عليها أنت ؟ انها لم تقل لى شيئا وعبثا حاولت استجوابها ..

— تا .. تا . تا . انك دون شك تستطيعين كشف أسرارها ..

— اذا كنت تريد قتلى فما عليك الا أن تثابر على الكلام بهذه الطريقة .. أنت مخطىء تجاه ابنتك وأظنها على صواب فيما فعلت وأنا اعهدها لا تفعل الا حسنا ..

— اننى راحل عن هذا البيت .. ان امرأتى وفتاتى تقدمان لى ألطف الهدايا فى هذا العيد المبارك ! يا للسخرية !

وعندما أقفل باب الشارع أسرعت يوجينى وارتمت فى صدر أمها وهى تردد : لقد أظهرت شجاعة خارقة فى سبيل الدفاع عن ابنتك يا أماه ..

— أرأيت الى أين قادتنا أعمال التسرع ؟ لقد أجبرتنى على الكذب .

— سأصلى الى الله كى يعاقبنى وحدى ..

وقالت نانون : هل صحيح أن الآنسة يوجينى ستكون مرغمة بقية أيامها على أن تعيش على الخبز والماء ؟ .

— صه يا نانون ..

— اننى لن أتقيد بشىء ، ستريين ..

— ٦ —

جاء آل كريشو وآل كريسان لزيارة جرانديه وعجبوا لعدم رؤيتهم ربة البيت وابنتها وقد برر جرانديه غيابهما بقوله : ان امرأتى منحرفة المزاج وفتاتنا تلازمها ..

وبعد مضى ساعة فى محادثات تافهة رجعت السيدة

كريسان التى كانت قد صعدت لزيارة السيدة جرانديه وأجابت بعد أن سألها الجميع بلهفة عن حالة المريضة : انها فى حالة خطرة وأنا أخشى عليها انها فى سن تستلزم جميع الاحتياطات أيها الاب جرانديه ..

فأجاب الرجل : سنرى .

ثم ما لبث الزائرون أن استأذنوا وانصرفوا .. فقالت السيدة كريسان عندما أصبحوا فى الخارج :

— لقد حدث دون شك شىء جديد فى بيت جرانديه .. فالسيدة فى حالة من المرض شديدة ولكنها لاتدرك شيئا عن درجة مرضها وخطورته . أما يوجينى فانها تحمل عينى انسان بكى طويلا .

* * *

وبعد أن نام جرانديه ذهبت نانون بخطى الثعلب الى غرفة يوجينى وهى تحمل لها فخذا كبيرة من اللحم وتقول : خذى يا آنستى .. ان (كورنولار) قد أرسل لى أرنبا بريا .. وهذه الفخذ تكفيك أكثر من ثمانية أيام .

— آه يا نانون الطيبة ..

— لقد صنعته وطبخته خفية عن أبيك اذ اشتريت جميع لوازمى من مالى الخاص .

ثم هربت الخادمة عندما خيل اليها أنها اشتمت رائحة جرانديه .

* * *

فى خلال بضعة شهور كان جرانديه يزور امرأته فى ساعات متفاوتة من النهار ، لم يكن فى اثنائها يتلفظ باسم ابنته او يأتى على ذكرها .. اما السيدة فلم تغادر غرفتها وكانت حالتها تزداد سوءا يوما بعد يوم .. لم يكن هنالك شىء يستطيع أن يلين ارادة جرانديه الصلبة .. فهو لم يغير

شيئا من قواعد ذهابه وايابه ولكنه لم يعد يتلعثم قط ..
وقد زادت قساوته فى الاعمال وان اصبح يخطىء فى جمع
بعض الاعداد .

ـ ماذا حدث فى بيت جرانديه .

سؤال طال ترديده فى أنحاء البلدة ..

وكانت يوجينى تذهب الى الكنيسة كعادتها بقيادة
نانون وكانت تجيب السيدة كريسان اجابات مقتضبة اذا
ما ألقت عليها بعض الاسئلة ..

ولقد بات من المستحيل بعد مضى شهرين ، كتم خبر
عزلة يوجينى عن آل كريشو أو عن آل كريسان ..
جاء وقت لم تستطع الاعتذارات المتوالية تبرير غيابها ..

وسرعان ماسرى فى البلدة ، دون أن يعرف كاشف
السر : ان يوجينى مسجونة فى غرفتها ، بأمر أبيها ! منذ
رأس السنة الماضية ولا يسمح لها بغير الماء والخبز وانها
محرومة من التدفئة ، وأن نانون تخصها ببعض الاشياء
تحملها لها فى جوف الليل .. وكان يتردد أيضا انه لم يكن
يسمح للفتاة أن ترى أو تعنى بأمها الا فى غياب أبيها !

واذ ذاك أخذ الاهلون يحكمون على جرانديه احكاما
قاسية ، واستعادوا فى أذهانهم صفقاته الماضية واضرارها
بالبلدة فزادت سمعته سوءا على سوء .. فكان كل انسان
عند مروره به يشير اليه ويتمتم بألفاظ غير مفهومة .

أما يوجينى فقد كان لها من طهارتها وتدينها قوة جعلتها
تحتمل بهدوء ذلك الانتقام الابوى . ولكن ألما عميقا آخر
كان يسيطر على آلامها ويفوقها جميعا فان امها كانت تدنو
من القبر بسرعة تضارع سرعة انقضاء الوقت ، وكانت
يوجينى كثيرا ماتتهم نفسها بأنها بأنهاسبب مرض أمها الخطر
البطىء فيزداد ألمها ، ولكن أمها نفسها كانت تسرع باقصاء

هذه الاوهام من مخيلتها وفى كل صباح عندما يخرج الاب ،
كانت يوجينى تسارع لتجثو بالقرب من سرير امها حيث
تحمل لها نانون الفطور ، ولكنها كثيرا ما رفضته باشارة
من يدها مختفية بارسال سيل من الدموع الصامتة التى كانت
تجتهد فى اخفائها كلما همت والدتها بالالتفات نحوها ..

وعندما كان جرانديه يأتى الى غرفة امرأته ويسألها
عن صحتها بأتفه العبارات كانت تجيبه بقوة واطمئنان متخذة
من دنوها من القبر صلابة وشجاعة فتقول :

ـ اشكرك على اعتنائك بى ، ولكن اذا كنت تريد ان
تسدى الى أجل الخدمات فى ساعتى الاخيرة فما عليك الا أن
تصفح عن ابنتنا .. وكان جرانديه يتذرع بالصمت متهددا
الرجاء كما يتذرع السائر فى المطر الشديد بأول سقف
يصادفه فيختفى تحته . وكان نسيان ابنته طبع فى نفسه
فلم يكن يتأثر مطلقا بالدموع التى تنسكب من عينين طاهرتين
على وجه يضارع شحوبه بياض الشمس .

وساءت حالة السيدة جرانديه وكثيرا بعد ان اخفقت فى
اعادة المياه الى مجاريها بين الوالد وابنته فلم تربدا من
احاطة آل كريشو بالامر . واحتق الحاكم الخبير فصاح :

ـ يا الهى : ان حجز فتاة فى الثالثة والعشرين من
عمرها وحرمانها من التغذية بغير الماء والخبز جريمة لا تغتفر
بل ويعاقب عليها بشدة وتستطيع الانسة جرانديه ان ...

وقال كاتب العدل يقاطعه :

ـ دعنا من احاديثك القضائية يا عزيزى ... اطمئنى
يا سيدتى الى انى سأرجع لك ابنتك منذ الغد .

وخرجت يوجينى عندما سمعتهم يتكلمون عنها فقالت
وهى تتقدم بخطوات مليئة بالاعتداد :

ـ ارجوكم أن لا تهتموا بهذه القضية فان أبى سيد

في بيته ومادمت عنده يجب على تنفيذ اوامره . ان تصرفاته هنا لا تعني الناس في قليل أو كثير فهو المسؤول أمام الله وحده وانني لأطلب بحق صداقتكم الصمت التام عن هذه القضية وانني لأثق بحسن نيتكم وأشكركم عليها ويزداد شكري لو عملتم على اسكات الاصوات التي تسرى في البلدة والتي اطلعت عليها صدفة عن غير عمد

فتأثر كريشوه بجمالها الشاحب وقال :

ـ خير وسيلة لاسكات الناس هي رؤيتهم لك حرة .

واردفت والدتها قائلة :

ـ دعي السيد كريشوه يتصرف في هذه القضية فهو ادرى الناس بطباع والدك واذا كنت تريدين أن تجعليني سعيدة في أواخر أيامي فيجب أن يعود الصفاء بينك وبين ولي نعمتك .

* * *

كان السيد جرانديه في صباح اليوم التالي يتنزه في بستانه الصغير وهذه عادة اتخذها منذ عزلة يوجيني .

وكثيرا ما جلس على المقعد الصغير ويوجيني تسارقه النظر من خلال النافذة وتتأمل صورته وعندما يعود تجلس بالقرب من النافذة وتلقي نظرات ساهمة على أزهار البستان النضرة .

وجاء السيد كريشوه في ساعة مبكرة ليقابل جرانديه الذي كان جالسا على المقعد الصغير وابتدره هذا قائلا :

ـ ماهي الخدمة التي يمكنني تأديتها لك أيها المعلم كريشوه ؟

ـ جئت احادثك عن الاعمال .

ـ آه .. آه . هل لديك بعض الذهب تبيعه لي ؟

ـ لا لا .. ان المسألة لا تتعلق بمال انها تتعلق بابنتك

يوجيني فان الجميع يتحدثون عنك وعنها :

ـ وماذا يعنيهم ؟ ان الفحام سيد في بيته !

ـ ان الفحام حر في ان يقتل نفسه وفي أن يرمي ماله من النافذة .

ـ ماذا تعني ؟

ـ فلا تنس أن امرأتك شديدة المرض يا صديقي وأنه يجب أن تستشير الطبيب فهي في خطر الموت واذا توفيت دون ان يعنى بها سببت لك بعض المتاعب .

ـ عندما يدخل بيتك هؤلاء الاطباء لاول مرة يلازمونك ملازمة الظل ولا يكتفون بزيارتك عشرات في اليوم الواحد

ـ ليس هذا الذي قادني اليك . فهناك مسألة اشد خطورة ، انت طبعا لاتريد ان تقتل امرأتك فهي كثيرة الفائدة ولكن لا تنس أن أراضيكما مشتركة وانك اذا ازعجت ابنتك فانها بعد موت أمها ، ستكون وريثتها الوحيدة وربما طالبتك بنصيبها .

ـ نزلت هذه الكلمات نزول الصاعقة على قلب جرانديه الذي لم يحسب حسابا لهذه الخاتمة المحتملة واستطرد كريشوه يقول :

ـ وهكذا أنصحك بمعاملتها بكل لطف تستطيعه .

ـ ولكن أتدري ماذا فعلت الفتاة ؟

فسأله كريشوه الذي كان شديد الفضول لمعرفة هذا السر :

ـ ماذا فعلت ؟

ـ لقد تصرفت في ذهبها .

ـ أكان هذا الذهب ملكا خالصا لها ؟

ـ أوه ، انهم كلهم يرددون نفس العبارة .

ـ أتريد من أجل مبلغ تافه أن تخسر المبالغ الطائلة ؟

ـ آه ! أتسمي ستة آلاف فرنك من الذهب مبلغا تافها ؟

ـ ايه يا صديقي المحترم ! لا تعرف كم تكلفك اجراءات القسمة علاوة على الاراضي التي ستفقدها .

ـ ماذا ؟

ـ ثلاثمائة وأربعمائة ألف فرنك تقريبا ولكن لو اتفقتما

ـ آه أقسم بأبي انني سأفكر في هذا يا كريشوه .

وبعد فترة من الصمت الرهيب أو من الحشرجة على الاصح نظر جرانديه الى صديقه ثم قال :

ان الحياة شاقة .. انها ملأى بالالام .. أقسم لك بشرفك ان ما تقوله هو الحق وانه على أسس قانونية ؟ دلني على الاسس .. أرجوك .. دلني عليها ..

ـ يا صديقي المسكين الا تظنني أعرف بسائط وظيفتي

ـ اذن سأسرق وسأقتل بيد ابنتي !!

ـ انها ترث أمها .

ـ مافائدة الاولاد اذن ؟ آه يا امرأتي ! انها مع هذا قوية البناء .

ـ لن تعيش أكثر من شهر آخر .

فضرب صانع البراميل جبهته بيده وأخذ يذرع الارض جيئة وذهابا ثم صاح :

ـ ما العمل ؟

ـ يمكن أن تتنازل يوجيني عن ميراثها ولكن عليك أن لا تقسو عليها وان كان ما أقوله الآن ضد مصلحتي .

ـ سنرى ، سنرى ، لندع هذا الموضوع الآن . هل لديك ذهب ؟

ـ لا ، ولكنني أملك بضع ليرات سأعطيها لك .. أصفح عن يوجيني يا عزيزي فان كل أهالي سومور يهتمون بالحادث .

ـ وداعا للقاء !

وبعد أن ذهب كريشوه كان جرانديه شديد الاضطراب ولم يكن في مقدوره أن يبقى وحيدا ، فصعد الى امرأته يقول :

ـ تستطيعين يا عزيزتي أن تقضي نهارك مع ابنتك . انني ذاهب الى فروداقون .

يجب أن تفرحا معا ، فان اليوم هو عيد زفافنا . خذي هذه الليرات الست واصرفيها على ما يسرك ، اذ يجب أن يعود الصفاء ويحل الفرح .

ثم أخذ رأس امرأته وقبل جبهتها مغمغما :

ـ أيتها المرأة الصالحة ! لقد تحسنت صحتك . أليس كذلك ؟

ـ كلا .. مادامت ابنتنا محجوزة وحيدة .

ـ تا .. تا .. تا .. سننظر في هذا

فصاحت الام يستخفها الفرح :

ـ يا عدل السماء ! تعالى يا يوجيني واحتضني أباك ، لقد عفا عنك .

ولكن الرجل كان قد اختفى وأنانيته الشديدة تسيطر على جميع افكاره وعواطفه ثم عاد الرجل بخطوات الذئب الى غرفة امرأته وكانت يوجيني قد حملت تذكار شارل الذهبي وصعدت به الى قرب أمها وراحت تتأمل تقاطيع الفتى الرجعة من خلال صورة والديه .

ـ وما لاحظت السيدة جرانديه النظرة التي القاها زوجها على التذكار في يد ابنتها قرأت في عينيه الجشع الى الذهب ورأته يقفز ناحية الفتاة كما يقفز النمر على ولد غارق في النوم ! ثم يخطفه صائحا :

ـ ما هذا ؟ هذا ذهب كثير !! آه .. آه .. لقد اعطاك شارل هذا بدلا من قطعك الجميلة ؟

لماذا لم تطلعيني على الامر ؟ انها عملية ممتازة يا بنيتي !

انك ابنتي حقيقة وعائدا تمس نفسك المجردة مرة أخرى .
اهذا الذهب يخص شارل ؟

ـ نعم يا أبي ولكنه ليس لي وانما امانة مقدسة

ـ تا . . تا . . تا ! انه استحوذ على ثروتك ويجب عليك أن تعودي الى امتلاك كنز آخر

ـ أبي : :

وأراد الرجل ان يأخذ سكينا ليفصل القطع الذهبية . فاسرعت يوجيني لالتقاطها . ولكن صانع البراميل ، نحى فتاته بدفعة من ذراعه جعلتها تسقط على سرير امها وصرخت الام وهي تنتحب في سريرها :

ـ سيدي ! سيدي !

وصرخت يوجيني وهي تجثو على ركبتيها : استحلفك بجميع القديسين وبالعذراء وبالسيد المسيح الا تمس هذا الشيء . ان هذه العلبة لاتخصك كما انها لاتخصني . انها تخص قريبا مسكينا اعطاها لي لاحتفظ له بها ، ويجب ان أعيدها له سليمة .

وصرخت بصوت مروع جعل نانون تسارع بالصعود . ثم قفزت الفتاة وأخذت سكينا رأته تحت نظرها فسألها والدها :

ـ حسنا ! ! ماذا تعنين ؟

ـ اذا لمس سكينك قطعة صغيرة من هذا الأثر ، فانني لا أتردد في بقر بطني بهذا السكين الذي بيدي . لقد جعلت أمي تمرض مرضا خطيرا ، والآن ستقتل فتاتك

ـ هل انتي جادة في قولك يا يوجيني ؟

ـ نعم .

وصرخت نانون :

ـ انها جديرة أن تصنع ماتقول ، فكن حكيما لاول مرة

في حياتك

فأخذ جرانديه يردد النظر لحظات قصيرة بين الذهب وابنته ، وبين ابنته والذهب ، فلم تلبث السيدة جرانديه ان اغمى عليها واندفعت نانون تصيح في وجهه :

ـ انظر ياسيدي . . ان امرأتك تموت .

ـ خذي يا ابنتي ، يجب الا تحزني من اجل علبة بسيطه ! خذيها اذن

ثم القى العلبة على السرير وعاد يقول :

ـ اما انت يانانون فاسرعي ونادى الطبيب برجران .

ثم مضى يقبل يد امرأته :

ـ حسنا أيتها الام ، انظري انني احتضن يوجيني انها تحب ابن عمها وستزف اليه اذا كانت تريد، وستحتفظ له بتذكاره الصغير . حسنا . . تحركي الآن . . . انك ستكونين أسعد امرأة في كل سومور .

فتمتمت: اتعامل امرأتك وابنتك هذه المعاملة ؟

ـ اعاهدك الا ارتكب هذا الخطا مرة أخرى . اقسم الا اعاود هذا العمل . ستريني يا امرأتي المسكينة . .

ثم ذهب الى مكتبه ورجع حاملا حفنة من النيرات ، القاها على السرير قائلا :

ـ خذي يايوجيني كل هذا لكما . . تشجعي ياامرأتي ولا تحرمي نفسك شيئا . . لا انت ولا يوجيني . . اليس كذلك ! ؟

فتبادلت السيدة جرانديه وابنتها نظرات مشدوهة ثم مالبثت يوجيني ان قالت :

ـ خذ دراهمك ياوالدي فنحن لانحتاج الا الى رضاك .

ـ حسنا . هذا حسن

قال هذا وهو يرجع الدراهم الى جيبه .

ـ لنعش بصفاء كأحسن الاصدقاء ، لننزل جميعا الى (الصالة) لنتغدى سويا ولنعب بعدها لعبا مسليا .

فاجابت المريضة بصوت واهن :

ـ كنت اريد أن انفذ رغبتك ، ولكني للاسف لا استطيع النهوض .

ـ يا للام المسكينة ! أنت لاتعرفين كم احبك ! وانت ايضا يا ابنتي !

ثم احتضنهما وقبلهما وعاد يقول :

ـ اوه ، اوه ! كم هو جميل أن يحتضن الانسان ابنته بعد ان يكون قد اختلف معها ، انظري اليها الام كيف انني وبرجيني نؤلف شخصا واحدا ، اذهبي واحتضني ابنتك يا ابنتي .. اذهبي ولا تخشي فلن ترى مني الا ما يسرك ويسعدك .

وقدم الدكتور (برجران) اشهر طبيب في سومور ، وبعد ان انتهى من فحص المريضة همس في اذن جرانديه قائلا : ان امرأتك في حالة خطرة ، ولكن راحة الفكر والاعتناء الدائم يمكن ان يطيلا حياتها الى آخر الخريف .

ـ ايكلف هذا غاليا ؟ اتحتاج الى ادوية كثيرة ؟

ـ يلزمها قليل من الادوية وكثير من الاعتناء .

ـ انك رجل شريف تعال وعد امرأتي كلما لزم الامر ، انقذ امرأتي الطيبة ، انني احبها كثيرا دون ان يلاحظ احد هذه المحبة لان كل الاشياء تجري عندنا في هدوء وصمت ، انني شديد الحزن . لقد وجد الحزن على منذ وفاة المرحوم اخي الذي انفقت في سبيله المبالغ الطائلة في باريس ، وداعا يا سيدي اذا كان مستطاعا انقاذ امرأتي فانقذها ، ولو كلف هذا الانقاذ مائة أو مائتي فرنك

وبالرغم من العناية التي كانت محاطة بها المريضة

وبالرغم من محبة ابنتها وبالرغم من تلطيف زوجها لادنى رغباتها ، كانت السيدة جرانديه سائرة بسرعة نحو القبر ، لقد كانت أشد اصفرارا من ورق الاشجار المتساقط . واخيرا انطفأت شمعة حياتها دون أن يصدر من شفتيها القابلتين ادنى احتجاج .. يا للحمل الوديع ! لقد ذهبت الى السماء دون أن تأسف الا على فلذة كبدها المسكينة وحيدة وسط عالم اناني يريد ان يسلبها ثروتها .

ـ ٧ ـ

شعرت يوجيني أن الحوادث تمكن عراها هذا البيت حيث نشأت وترعرعت وحيث ماتت والدتها وستموت هي . انها لم تكن تستطيع ان ترى آثار تلك الوالدة الحنون دون ان تذرف الدموع الغزيرة . وخيل اليها انها كانت تجهل جهلا تاما طيبة أبيها ومحبته لها . ولامت نفسها على هذا الجهل ! فلقد اخذ يعاملها ارق معاملة ويأخذ بيدها في روحاته وغدواته ، حتى انه كان يرتجف عندما يتحدث اليها . وبعد انتهاء مراسيم الحداد واغلقت الابواب قال لها في حضرة كريشوه :

ـ ها قد أصبحت وريثة امك وهناك بعض نقط يجب علينا ايضاحها ؟

ـ هل من الضروري ان نهتم اليوم بهذا الامر يا ابي ؟

ـ نعم .. نعم يا ابنتي ، انني لا أستطيع ان اعيش بلا استقرار ولا اعتقد انك ستخلقين لي شيئا من المتاعب

ـ أوه يا أبي

ـ حسنا يجب ان نرتب كل هذا

ـ ماذا تريد مني أن اصنع ؟

ـ ولكن هذا لايعنيني يا ابنتي قل لها يامسيو كريشوه
فأخذ الضيف يشرح لها غرضي والدها قائلا :

ـ ان اباك لا يريد ان يقسم الارث ولا ان يبيع نصيبه ولا ان يدفع المبالغ الطائلة في سبيل اتمام هاتين العمليتين .

ـ ولكن ماذا يجب على ان أفعل ؟ ..

ـ يجب ان توقعي هذه الورقة التي تعترفين فيها انك تتنازلين عن ارثك لابيك الذي يصبح المالك الوحيد للاراضي التي ...

ـ انني لا افهم شيئا كثيرا مما تقول .. اعطني الورقة لاوقعها .

فردد جرانديه النظر بين الورقة وابنته ، وبين ابنته والورقة . واجتاحته عواطف جامحة جعلت جبينه يتندى بالعرق .

ـ أرجو يا بنيتي بدلا من ان توقعي هذا الاتفاق الذي يكلف تسجيله دراهم كثيرة ان تعترفي في المحكمة انك تنازلت عن ميراث امك وانك تكلين لي جميع امورك وساعطيك كل شهر مبلغ مائة فرنك وهكذا تستطيعين مؤازرة كثير من الاعمال الخيرية .. مارايك ؟

ـ سافعل جميع ما يسرك يا ابي .

فقال كريشوه : من واجبي يا آنسة أن أنبهك الى انك تجردين نفسك .

ـ ماذا يهمني هذا الامر ؟

وصاح جرانديه وهو يصافح فتاته بحرارة : يوجيني حبيبتي !! أنت لن ترجعي عن كلامك . أنت فتاة شريفة .

ـ أوه يا ابي .

واحتضن جرانديه ابنته بقوة حتى كاد ان يخنقها ثم قال :

ـ انك وهبت الحياة لابيك ياابنتي ولكنك تعيدين اليه ما أعطاك من قبل ، وبذلك تعادلت حياتنا .. هكذا يجب ان تسوى الاعمال .. انني اباركك .. انك ابنة فاضلة تحب أباها ، افعلي الآن ما بدالك .. الى الغد يا كريشوه ؟

* * *

وفي ظهر اليوم التالي وقعت يوجيني في المحكمة تقدم وثيقة تنازلها على ميراث امها . وعلى الرغم من التعهد الذي اخذه جرانديه على نفسه لم يقدم شيئا لابنته من المائة فرنك التي كان قد وعد أن يقدمها لها في كل شهر ، وعندما ذكرته يوجيني بوعده بعد عام وبطريقة لطيفة لم يستطع ان يمنع وجنتيه من الاحمرار ، ثم اسرع الى مكتبه ، ورجع حاملا ثلث الجواهر التي كان شارل قد اعطاها له وهو يصيح ببهجة الهزء والحنق :

ـ خذي ابنتي الصغيرة الكفيك هذه الجواهر بدلا من الالف والمائتي فرنك التي استحقت لك ؟

ـ أوه يابي .. اصحيح انك تعطيني كل هذا ؟!

ـ سأعطيك مثله في السنة القادمة .

ثم ألقى اليها ذلك النصيب وقد أسعده ان استطاع كسب ود فتاته بهذه السرعة . ورغم ان الرجل الهرم كان لايزال قويا فانه شعر برغبة ملحة تدفعه الى اطلاع ابنته على أسرار عمله تمرنها في خلال سنتين كاملتين على ترتيب دواخل البيت وكيفية ادارته ثم اطلعها على محتويات كل غرفة . وعند حلول السنة الثالثة كان قد انهى تمرينها على أساليبه التي كان يفرضها عليه بخله ولم يتردد في ان يسلمها مفاتيح بيته ويجعلها سيدة المنزل . ثم مضت

خمس سنوات دون ان يحدث ما يعكر حياة يوجيني وابيها السائرة على وتيرة واحدة ، فكانت نفس الاعمـــال تتابع وتتردد على مر الساعات

ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره أصيب بمـــرض الكساح الذى ما لبث ان امتد الى كافة أعضائه ولقد قطع الطبيب (برجران) امله في نجاته وعندما لاحظت يوجيني انها سوف تصبح وحيدة في هذا العالم زاد تعلقها بابيها ، ذلك الحبل العاطفى الوحيد الذى يربطها بهذا العالم .

واشتد المرض بالرجل في صبيحة احد الايام فطلب ان يقاد الى مكان يتوسط المسافة بين موقد غرفته وبين باب مكتبه حيث أودع ذهبه وثروته ثم ظل أياما على هذه العادة وراح يمكث الساعات الطويلة في هذا الوضع مصغيا لادنى الحركات مرددا طرفه بين باب المكتب المصفح وبين البهــو حتى جاء الوقت الذى زحفت فيه همته الجبـارة تحت وطأة الامراض فكان يود لو يبقى دائما امام الموقد ليظل مشرفا على مستودع امواله . وعندما كان يستطيع فتح عينيه اللتين كانتا مظهر الحياة الوحيد المتردد فيه كان يديرهما نحو باب غرفة الكنز سائلا ابنته بصوت يشوبه الخوف والارتجاف :

ـ هل المال هو ... موجود ؟

ثم يعود فيقول :

ـ انتبهى للذهب .. ضعى الذهب أمام ناظرى ..

فكانت يوجيني تنشر الليرات الذهبية على قصد قريب منه فينظر اليها نظرات نهمة .. نظرات طفل تفتحت عيناه لاول مرة على نور الوجــود ، وكان يتمتم شافها هـــــــه بابتسامة هادئة :

ـ ان هذا يدفئني .. ان هذا عظيم ..!!

وراح المرض يدب دبيبه في جسم ذلك العجوز ، وراح .

يرى بعينيه الذابلتين وبقلبه الكسير انه لن يرث الارض ومـا عليها كما كان يحسب ويقدر ، فزاد ذلك آلامه وشقوته .

وكثيرا ما اخذ يتطلع الى قسمات ابنته الوادعة واساريرهـا الساذجة ثم جعل يتساءل :

ـ لماذا لم أنجب ذكرا يحفظ من بعدي هذا التراث الكبير الذى جمعته بشق الانفس وعرق الجبين ؟ ترى هل ستتزوج يوجيني اول رجل يغرر بسلامة طويتها وتسلمه قيادها وتهبه كل ما تمتلك فيمضي كالشـــيطان يبعثر ذات اليمين وذات اليسار كل هذا الذهب الذى ضننت به على زوجتي وفلذة كبدى وعلى نفسي ؟! أتراها ستظل بتولا الى ان يعود ابن عمها الباريسي الطائش فيخلب لبها بأنانيته وعذوبته الزائفة فيسلبها كل ما جمعته طوال العمر ؟ أتراه سيجردها من كل ذلك ويحتويه وكانمـــا ارسلته العناية الالهية لينتقم من ثروتي لدى ابيه ؟!

ـ يا للقدر الساخر !!

ها هو الرجل العاتي يرزح تحت أعباء المرض الثقـال وها هي أمانيه تتبدد وتذروها الرياح !

وهـــا هو ذا يترقب الموت وهو الذى ظل يعمل على ان تتنازل له ابنته ووحيدته عن ميراث امها ! ها هو ذا يوشك أن يغادر هذا العالم بمباهجه ولذاته ! هـذه المبـــاهج واللذات التي لم تكن في ناظره تعـدو الاغتباط والنشوة بمراجعة احصاء نقوده في كل يوم تقريبا ، حتى اذا اطمأن الى أنها زادت وربت ثلج صدره وشعر بأنه أسعد الناس طرا على وجه البسيطة !

وها هو البخيل الشحيح الذي طالما سهر الليالي خشية ان يتسور داره اللصوص ، قد آن أن يغمض عينيه الى الابد فلا يعرف العابث باموالـه ولا يبصر المبذر لذهبه الغالي ولا يهدى

الى أين ستمضي ثروته التي كان يعتز بها أكثر من اعتزازه بابنته ويحتال على انمائها بمختلف الطرق والاساليب .

وفي حشرجة الموت صاح بابنته :

— هاتي الذهب .. ضعيه أمامي .. دعيني اكتحل ببريقه قبل ان يمسح الموت على عيني !

وكان يمد يده الواهنة يتحسس بها نقوده الذهبية ويربت عليها في لهفة وحسرة وحنان !! وكان يتمتم بما يشبه التعاويذكانما يبارك أمواله أو يضرع الى الله الاتذهب الى الابد والا ينعم بها سوى ابنته وحدها .

وأخيرا صعدت روحه الى خالقها وهي متمردة على الموت وعلى الحرمان مما تركه البخيل خلفه بعد طول شح وتقتير

— ٨ —

وجدت يوجيني نفسها بعد وفاة أبيها وحيدة في هذا العالم ولم يكن هناك سوى شخص واحد تستطيع الاطمئنان الى أنه يفهمها لو تكلمت وهي نانون . فقد كانت نانون رسول العناية الالهية بالنسبة اليها .. انها لم تكن تعتبرها خادمة بل صديقة مخلصة .. ولقد اطلعت يوجيني على مبلغ ثروتها بوساطة السيد كريشوه وعرفت انها تقدر بنحو سبعة عشر مليونا من الفرنكات .. ولطالما رددت لنفسها : أين ابن عمي الآن ؟ ..

وفي اليوم الذي تسلمت فيه يوجيني الاوراق التي جعلتها وريثة لابيها جلست مع نانون في البيت الذي كان كل ما فيه يبعث الذكرى الاليمة الى نفسها . وخاطبت الفتاة صديقتها الوحيدة قائلة :

— اننا يا نانون وحيدتان في هذه الدنيا ..

— نعم ، للاسف .. ولو كنت أعرف مكان ابن عمك

الجبيل لذهبت اليه سيرا على الاقدام .

— ان البحر يفصل بيننا يا نانون ! ..

— ولكنه سيعود حتما ولابد انه قد احرز آنئذ ثروة طائلة

— وهل يهمني المال ؟ أتظنينه يحبني قدر ما احبه ؟

— وهل يراك أحد ولا يحبك يا ابنتي ؟ انك آية في الطهر والجمال .. ثم أنت ابنة عمه .

— وهل يكفي هذا لان يؤثرني على غادات باريس

— ان غادات باريس لا يستهوين الا طائشي الاحلام . ولو ان واحدة منهن اسرت لبه لكان قد خطبها من قبل

وتقضت لحظات سبحت في اثنائها يوجيني في بحر لجي من أحلام اليقظة الهانئة ثم رنت الى نانون بابتسامة وقالت في خفر وحياء :

— لقد تسللت الى غرفته وقرأت خطابين كان قد كتبهما . وفي أحدهما قرأت انه يفصم عهده لاحدى الفتيات ويتحدث عني .

فتنفست نانون الصعداء عن قلب مثقل وهتفت .

— أما قلت لك ؟ هذا يؤكد اذن ماقدرته . اطمئني يا ابنتي الى أنه يحبك والا ما أعطاك أغلى ما لديه لتحتفظي به وديعة الى ان يعود من رحلته الطويلة . ولا شك انه لحن بجمالك وبحياتنا البسيطة الهادئة وبطهارة نفوسنا الساذجة .

— لا أكتمك يا نانون انني انم في كل ليلة ذلك التذكار وأتمثل فيه ابن عمي بوجهه الصبيح وقوامه الممشوق وعينيه العجاويين ، فاشعر بالسعادة تملأ قلبي وسط احزاني ووحشتي القاسية .

— جففي دموعك ياصغيرتي . سيعود السيد شارل وسوف تنسين بين ذراعيه كل هم وأسى .

— لقد وعدني ...

ـ ولن يتحرر شاب مثقف من الوعد الذي قطعه على نفسه ثم لا تنسى أنك سر سعادته وأنه لولاك ما استطاع السفر والسعي والكفاح .

وجرت نانون الى النافذة في خفة الشباب فابتسمت يوجيني وسط دموعها وتمتمت سائلة :

ـ أهو انطوان يانانون ؟

فلم تجب (العجوز) لانهـا كانت تطل على الحارس انطوان الذي احبته منذ عشر سنوات في صمت وكتمان ولم تجرؤ على الافضاء اليه بمحبتها ولم يجسر الرجل بدوره على مكاشفتها بما يعتلج بين جنبيه كأنما كان يخشى أن يبثها هواه فتحدث سيدها بالامر وربما يثور ويفور ويطرده من حراسة املاكه الواسعة . فلما مات السيد جرانديه راح الحارس يتودد الى نانون ويطارحها هواه جهرا وعلانية وكثيرا ماجاء تحت نافذتها ورفع عقيرته بالغناء كأنما يهيب بها :

ـ ماهو روميو تحت شرفتك ياجولييت !

وكانت (العجوز) تجـري الى النافذة فتبادله تحية بتحية وابتسامة بابتسامة أو تهبط وتطلب اليه أن يحدثها عن الكروم والبساتين فيجيبها بلغة العاشقين المدلهين !! .

في الوقت الذي كانت الوريثة تذرف الدموع في بيتها القاتم . لم يكن لاهالي البـلدة حديث الا عن السبعة عشر مليونا التي ورثتها .. وكان أول عمل قامت به يوجيني انها جعلت لنانون دخلا سنويا قدره ١٥٠٠ فرنك ولم تلبث هي طويلا حتى زفت الى "انطوان كورنولار" حارس اراضي واملاك الآنسة جرانديه وكان للسيدة كورنولار ميزات كثيرة فهي على عمرها تبـدو في الاربعين بفضل الحياة الهـادئة الفاضلة التي كانت تحياها كما تنعم بصحة قوية وخدود قانية وبالرغم من دمامة وجههـا كان لها من مظهر السعادة

جانب يأسر اعجاب كورنولار . واتخذ كثير من اعجابه بزوجته مضغة في الافواه فراحوا يقولون :

ـ انها جديرة أن تنجب أولادا .

ـ انها غنية ولقد عقد كورنولار صفقة رابحة .

* * *

وقدمت يوجيني للسيدة كورنولار كثيـرا من الهدايا جعلت زوجها يذرف الدمع ويقسم انه مستعد أن يقطع اربا اربا في سبيلها .

وتولت نانون ادارة البيت بعد زواجها . كمـا أخذ زوجها يدير الاملاك ولهذا لم يشعر الفلاحون بوفاة جرانديه خصوصا وأن السيد والسيدة كورنولار اتبعا اساليب الرجل الراحل ..

وبلغت يوجيني الثلاثين من سنها دون أن تتذوق شيئا من السعادة ، فقد قضت طفولتها بالقرب من والدة مكبوتة العاطفة ، تحس في اطوائها ألما دفينا .. ولم يكن الحب الذي تفتح له قلبها لاول مرة الا مصدرا من مصادر شقائها وعذابها لانها وهبته قلبها ولكنه ما لبث أن رحل تاركا شقة كبيرة بينه وبينها ، وهذا الحب الذي لعنه أبوها كلفها حياة أمها وذكريات لا حدود للحزن الذي تبعثه . وظلت يوجيني تتألم ولم يكن المال يعني شيئا بالنسبة اليها فحياتها كانت مرتكزة على دعامتين : الانجيل والقلب .. وقد كانا لها بمثابة عالمين بديعين لا تأتلف من انتظار حلولهما .

وكان واضحا أنها لن تتزوج في فترة الحداد لان تدينها كان جليا واضحا ولهذا اكتفت عائلة كريشو الصغيرة بنصائح القسيس ، باحاطة يوجيني بأدق الرعاية وأبلغ الاهتمام .. فقد كان يحيط بها في كل مسـاء جمع من آل كريشو ، يدبجون لها المدائح ويصوغون لها الاطراء ..

واخذ الحاكم على نفسه أن يظهر بمظهر الشاب المتأنق

رغم بلوغه الاربعين فكان عنـد زيارته ليوجيني يرتدي ربطة عنق بيضاء زاهية ويحاول ان يجعل احاديثه بعيدة عن اللغة القضائية ويتحبب ليوجيني فيدعوها بعزيزتنا الآنسـة .. اما السيدة كريسان فظلت على حالهـا تغرس الاشواك في طريق آل كريشو .

❋ ❋ ❋

بينما كانت هذه الحوادث تجرى في سومور كان شارل يجمع ثروة في الهند ولقد راجت تجارته ، ولكنه مالبث أن لاحظ أن الارباح الوفـيرة والعاجلة لا تأتي الا في المتاجرة الخطرة . فرحل الى سواحل أفريقيـا مضيفا الى تجارته بالرقيق تجارته بالاشياء المهمة التي كان يتعاطاها عن طريق المبادلة ، وكان يظهر في الاعمال نشاطا يستغرق كل وقته . وما لبث بعـد زيارته لكثير من البلاد واختلاطه بكثير من الناس ورؤيته للعادات المتناقضة بين مختلف الامم واطلاعه على الاسس الخلقية المتباينة ... ما لبث أن أصـبح جامدا لا يفرق بين الخير والشر ولا بين القبيح والحسن فالجريمة عند أمة كانت تعد حسنة عند غيرها والفضيلة في نظر شعب من الشعوب تعد رذيلة في نظر شعب آخر ! وهكـذا لم يلبث شارل أن استحال الى انسان جامد مجرد من كل شعور بعيد عن كل عاطفة . لقد باع عبيدا وصينيين وأعشاش عصافير وأولادا وفنانين . وان عادة احتقار حقوق (الجمارك) علمته احتقار حقوق الانسان وهكذا كان يذهب الى (سانتوماس) يشترى بأسـعار بخسة البضاعة التي يسرقها القرصان ويبيعها بأغلى ثمن في بلاد اخرى !

واذا كانت يوجيني قد رافقت مخيلته في ابتداء أعماله كما ترافق صورة العذراء البحارة الاسبان في اسفارهم ، واذا كان قد عزا لدعواتهـا وحمايتها العاطفية سر نجاح مشاريعه الاولى ، فان مغامراته في البلدان العديدة ما لبثت أن طردت من رأسه هـذه الفكرة الزاهية التي بدأت تغشى جلالها لديه يوما بعد يوم بل لقد نسي ذكريات العهد الصغير والعهد الذي قطعه عليه ، ولم يعد يذكر الا البستان الصغير لأن هذه قرنت حياته المحفوفة بالمغامرات . ولقد بدا يفكر في أن تاما لعائلته في سـومور . لم يكن عمه في نظره الا سارق جواهره وابنته لم تعد تحتل أى مكان في قلبه ، ولم تعدلها اية ذكرى في عواطفه وهذا هو تفسير صمته الطويل عن الكتابة الى يوجيني وما أسرع ما تكدست الاموال في جيوبه ففى سنة ١٨٢٧ رجع الى (بوردو) على الباخرة الجميلة (مارى كارولين) حاملا معه مائة وتسعة عشر ألف فرنك .

وكان على الباخرة رجل من الحاشية الملكية المركيز دى بريون ارتكب جنون الزواج من امرأة عصرية شابة ولكي يخفف وطأة مصاريف امرأته كان يريد أن يزوج ابنته دون أن تدفع مهرا من اى رجل موافق مغرم بالالقاب . ولكن السـيدة (دى بريون) وزوجهـا لم يتسن لهما القيام بمهمتهما على الوجه الذى يريدان لشدة دمامة فتاتهما فقد كانت طويلة ضعيفة ذات وجه شبيه بالحشرات ، وشفتاها منفرجتان وأنفها مفرط في الطول يكتسي لونا أحمر قانيا عند انتهاء (حاملته) من الاكل ولكن المركيزة لكي تخفف شيئا من دمامة ابنتهـا كانت قد فرضت عليها نظاما خاصا للتغذية (ريجيم) وأصبح انفها عرضة لعمليات رياضية وتجميلية جعلته يظهر أقـل طولا مما هو حقيقة !! ثم علمتها كيف تبدى قدمها الصغيرة عندما كانت تظهر على انفها آثار الاحمرار ! وهكذا استطاعت أن تجعل منها فتاة أقل دمامة مما قدر لها أن تكون . وكان شارل قد أصبح صديق الـ (دى بريون) الصدوق . وكانت العائلة تريد من كل قلبها أن تستحوذ على صهر في غنى شارل .

وبدأت الأم تتكلم عن السعادة التي تشعر بها عندما تقدم طابق قصرها الأرضي ، في باريس .. لابنتها وصهرها . ولما لم يكن لشارل نبيل (دى بريون) وعدته السيدة بأن تحصل له من شارل العاشر على وثيقة تخول له الانضمام إلى عائلة دى بريون وتضمن له إيرادا سنويا قدره ستة آلاف ليرة كما تضمن له لقب (كونت) بعد أن يتزوج ابنتها . وطالما شغل الفتى بها كانت تردده على مسمعه قائلة :

ـ وعندما يصبح إيرادك مائة ألف ليرة ، ويصبح لك اسم ، وعائلة ، تستطيع الذهاب إلى البلاط ، لانني سأسعى لجعلك من رجال الحاشية وعندها تستطيع أن تستحوذ على الوظيفة التي تريدها ان الملك شارل العاشر يحب كثير (دى بريون) وهو رفيق طفولته .

ولقد كان جنون العظمة مسيطر على شارل طوال الرحلة وكان يعتقد أن مسألة أبيه قد انتهت بتدخل عمه ، فحسب انه سيهبط إلى باريس لأول مرة ملكا من ملوك المال والجاه ! وماكان اشد استيائه عندما نمى إليه أن السيد (كريسان) (المتعهد بتصفية أعمال أبيه) قد جاء إلى زيارته ثلاث مرات متواليات ولم يجده وهو الآن بانتظاره . وعندما استمع إليه بمنتهى البرود أجابه دون أن يفهم كلامه على حقيقته :

ـ ان أعمال أبي غير أعمالي . وإني أشكرك على المهمة التي بذلتها ياسيدى في سبيل هذا المشروع ولكنني لم أذهب إلى أقاصي المعمورة وأجمع مليونين من الفرنكات لايعترضها كيفما اتفق ولادفعهما لدائني والدى .

ـ وإذا أعلن ، في خلال بضعة أيام ، افلاس أبيك ؟

ـ من الآن إلى بضعة أيام سأدعى الكونت (دى بريون) وهكذا ترى ان هذا الأمر لايعنيني مطلقا .

* * *

جلست يوجيني على المقعد الصغير في الحديقة حيث أقسم لها شارل وعاهدها على محبة أبدية لاتزعزعها الأحداث ولا تفصمها الكروب والنكوب ..

وكانت الفتاة المسكينة تستعيد في ذهنها الأطوار التي مرت بها حياتها القاتمة عندما طرق موزع البريد الباب ثم سلم خطابا للسيدة (كورنولاي) . ومضت هذه بدورها تسلم الخطاب ليوجيني التي هتفت :

ـ باريس ! .. هذا منه لقد رجع !

ثم علا الاصفرار وجه يوجيني وتركت الكتاب سليما لبضع لحظات

ووقفت نانون بالقرب منها واضعة يدها على خصرها والسرور يكاد يتجسد في محياها .

ـ اقرئيه يا آنسة .

ـ آه يانانون .. لماذا يرجع إلى باريس مع انه سافر من سومور ؟

ـ اقرئي ينكشف لك السر .

فضت يوجيني الكتاب بيد مرتجفة فسقط منه تحويل على مصرف : السيد دى كريسان وكوركت سومور . ثم قرأت الخطاب وهذا نصه :

« ابنة العم العزيزة ـ لقد اتصل بك دون شك خبر النجاح الذي أحرزته في أعمالي وقد كنت انت سببا في اسعادى وربما قد رجعت غنيا بعد أن اتبعت نصائح عمي الذي اتصل بي خبر وفاته ووفاة امرأة عمي عن طريق السيد كريسان . ان موت أهلنا شيء طبيعي ومقدر لنا نفس النهاية . نعم يا ابنة العم العزيزة لقد مضى وقت الأوهام . وبعد أن سافرت إلى بلاد عديدة بدأت أفكر في الحياة وتغير الولد الذي كنت

تعرفين واصبح انسانا كامل الرجولة . واننى أفكر الان فى كثير من الاشياء التى لم اكن أعيرها شيئا من الالتفات فى الماضى . انت حرة يا ابنة العم وانا لازال حرا كذلك وليس هناك مايمنع من تحقيق آمالنا الصغيرة القديمة ولكننى شديد الصراحـــة لدرجة تمنعنى من ان اخفى عنك حقيقة مركزى الاجتماعى . ألم أنس الوعد الذى قطعته على نفسى . وكثيرا ماكنت اتذكر فى اسفارى الطويلة ذلك المقعد الخشبى الصغير

وقفت يوجينى كان ابرا وخزتها ثم ذهبت وجلست على الدرج فى طرف الفناء تستأنف قراءة الخطاب : « ... المقعد الصغير حيث تعاهدنا على تبادل حب خالد . ولم أنس غرفتى فى تلك الليلة حيث تفضلت باعارتى دراهم ســـهلت مهمتى تسهيلا كبيرا . ان هذه الذكريات كانت تشدد عزيمتى على الكفاح وتدلنى على انك لم تنقصى عن التفكير فى . كما اننى كثيرا مافكرت فيك . ولهذا اضرع اليك أن لاتقضى صلات الصداقة العميقة التى يجب أن تربطنى بك . ان مايهمنى الان هو ان ارتبط بصلة تحقق جميع الافكار التى بنيتها على الزواج وفوق ذلك فان الفرق الكبير بين سنى وسنك ربما أثر فى مستقبلك أكثر من تأثيره فى مستقبلى . هذا وانى احدثت عن ثقافتك وعاداتك التى لايمكن ان تتفق بحال من الاحوال مع الحياة التى أرغب فيها ، ذلك ان من أقصى رغباتى أن استقبل كثيرا من الناس وان اقيم كثيرا من الحفلات ، وانت كما اعتقد لاتستهويك الا حياة لطيفة هادئة . لا ، ساكون أكثر صراحة وساجعلك حكما عادلا على موقفى . اننى أملك الان دخلا سنويا قدره ثمانون الف ليرة . هذه الثروة تتيح لى الارتباط بعائلة دى بريون والزواج من فتاتها التى لها من العمر تسعة عشر سنة واننى اعترف لك يا ابنة العم باننى لاأحمل للانســـة

دى بريون ذرة واحدة من الحب ولكننى أضمن لاولادى مراكز اجتماعية مقبولة الفائدة .

« وهكذا ترين يا ابنة العم العزيزة باية صراحة أكشف لك عن لواعج نفسى . ومن الطبيعى من جهتك ان تكونى قد نسيت مبادئنا الطفلة بعد ان مضى عليها هذا الزمن الطويل واذا كنت أصارحك باضطرارى الى اجراء الزواج الذى تكلمت عنه ، فاننى أدعوك فى نفس الوقت ، الى السماح لى بالاحتفاظ بتلك الصورة التى طبعت فى مخيلتى خلال الفترة القصيرة التى قضيناهـــا معا وارجو ان تظلى على ودك وأن تكونى فى خير صديق .

« ابن عمك المخلص : شارل »

« حاشية : تجدين طيه تحويلا على مصرف كريسمان بمبلغ ثمانية آلاف فرنك وهى البقية التى تفضلت باقراضى اياها مضافا اليها الفائدة المســـتحقة . اننى ارجو أن ترسل لى الاشياء البسيطة التى أودعتهـــا لديك الى قصر دى بريون ــ شارع هيلران ــ برتان »

يالها من صدمة مروعة ! . لقد غرق المركب دون ان يبقى منها لوح أو حبل يســـاعد على العوم والنجاة . وعندما انتهت يوجينى من قراءة الرسالة المروعة أرسلت بصرهـــا الزائـــغ الى السماء وتذكرت نظرات أمها المتسائلة ثم اخذت تستعرض تلك الصورة وقد أيقنت أن لا امل لها الا فى مواصلة الصلاة فى انتظار يوم الخلاص .

ثم صعدت الى غرفتها دون ان تمر فى الردهة كعادتها اذ كان أتفه الاشياء فيها يذكرها بشارل

وما لبثت طويلا حتى اعلن لها خبر قدوم القسيس كريشو .. وكان هذا القس من مؤازرى مشروع نسيبه

الحاكم ولقد دفعه هذا الأخير الى اغراء يوجيني بالزواج منه وتحبيبه اليها ، ضاربا بذلك على الوتر الديني الذي كان عظيم التأثير في الفتاة التقية الشديدة الورع .

وظنت يوجيني ان رجل الدين جاء يطالبها بالمبلغ الذي تعودت توزيعه على الفقراء في كل شهر فأمرت باحضاره له على الفور .. ولكن القس ما لبث أن ابتسم وقال :

- انما جئت في هذا اليوم أيتها الآنسة ، كي احدثك عن فتاة مسكينة تتحدث عنها كل سوموز وهي تعتمر رافقتها بنفسها تحيا حياة بعيدة عن روح الديانة المسيحية .

- يا الهي .. ياسيدي القس ! انك تجدني اليوم في حالة لا أستطيع معها التفكير في اكثر من نفسي .. فانا شقية لدرجة تدفعني دفعا الى الكنيسة كي أستمد منها النسيان والسلوان اللذين لا ينضب معينهما فيها ..

- حسنا ياآنستي .. عندما نهتم بالفتاة التي ذكرت ، انما نهتم بك نفسك .. اسمعي .. اذا كنت تريدين العيش في هذا العالم فعليك اتباع احدى طريقتين : اما أن تهجري الناس واما أن تخضعي لنواميس حياتهم .

- آه ! ان صوتك يناجيني في الوقت الذي احتاج فيه الى سماع أي صوت رحيم .. نعم ان الله وحده هو الذي بعثك الي يا سيدي ، سأقول وداعا لهذا العالم وأعيش من أجل الله وحده في العزلة والهدوء ..

- من الضروري ان تفكري طويلا ياآنستي قبل أن تفكري في اتخاذ مثل هذا العزم .. فالزواج حياة ثانية بينما الرهبانية هي الموت ..

فصرخت يوجيني والهة :

حسنا .. الموت الموت .. ياسيدي القس

- الموت ؟ ولكن هناك واجبات اجتماعية كثيرة يجب عليك تأديتها في هذه الدنيا .. ألست والدة الفقراء ؟ الا تقدمين لهم الملابس والاخشاب في الشتاء والعمل في الصيف

ان ثروتك الكبيرة هي فرض كبير ، عليك ان تؤديه بضروب الاحسان .. وانت نفسك قد فهمتها على هذه الصورة قبل كلامي .. ان زوجا صالحا ضروري لك ، ويجب عليك ان تحافظي على نعمة الله اذ اثار قلبك بحب الخير والاحسان .. وانك لتقدرين هذه الهبة حق قدرها اذ جعلك في هذا العالم امثولة حسية للتضحية والايثار والتفاني في سبيل الغير .

❋ ❋ ❋

وفي هذه الاثناء دخلت السيدة كريستان مقودة بدافع الانتقام والشماتة لتقول :

- أيتها الآنسة ! .. هذا سيدي القس ! انني اصمت لقد جئت احدثك عن الاعمال وارى انك في جلسة دينية رهيبة .

فقال القس بادي الجزع والقنوط :

- انني ادع لكما حرية الكلام ، فأنسحب .

- أوه ياسيدي ! أرجوك أن ترجع بعد بضع ثوان فان مساعدتك ضرورية لي في مثل هذا الوقت .

وغمغمت السيدة كريستان :

- نعم يا ابنتي المسكينة !

فسأل القس :

- ماذا تريدين أن تقولي ؟

ولكن السيدة استطردت تقول للفتاة :

- الا تعرفين شيئا عن رجوع شارل الى باريس وعن زفافه بالآنسة دي بريدون ؟

فاشتد شحوب وجنتي يوجيني وظلت صامتة ولكنها ما لبثت أن استعادت الهدوء وعدم التأثر المأثورين عن أبيها ، واجابت هازئة :

– حسنا ياسيدتي · انني حقا غبية ولم أفهمك · تكلمي امام القس فهو صديق كما تعلمين ·

– حسنا ياآنستي انظري ماذا كتب الى زوجي كريسان ؟ اقرئي

وقرأت يوجيني الخطاب التالي :

« امرأتي العزيزة · رحل شارل جرانديه عن الهند وهو في باريس منذ شهر » ··

وقالت يوجيني في نفسها : شهر ؟ !

واستطردت السيدة كريسان تقرأ بقية الخطاب :

« لقد اضطررت أن انتظر ثلاث مرات متواليات حتى اتيح لي ان اكلم هذا الرجل الذي سيصبح الكونت دي بريون وبالرغم من أن كل باريس يتكلم عن قرب زفافه الى الآنسة دي بريون فانه لم يزل بعيد الاحتمال · لأن الكونت دي بريون لن يزف فتاته الى ابن رجل مفلس ، فقد أطلعته على الجهود التي بذلتها أنا وعمه في سبيل المحافظة على اسمه وفي سبيل حمل الدائنين على الانتظار حتى الآن لكن النذل الصغير لم يتردد على القول لي انا الذي ضحيت كثيرا في سبيله في خلال سبع سنين بأن « اعمال أبيه غير اعماله » · لكن صبرا فان عليه أن يدفع الى الدائنين مبلغ مليون ومائتي الف فرنك والا اعلنت افلاس أبيه في خلال بضعة ايام · واذا كان شرف السيد جرانديه لا يهمه ، فان شرفي يهمني ·· ولهذا ··

ولهذا أريد الآن أن أشرح موقفي أمام الدائنين · ولكنني أحترم كثيرا الآنسة يوجيني التي كانت علاقتنا معها في الماضي ····· »

واذ ذاك قالت يوجيني :

– أشكرك أيتها السيدة (كريسان) سننتظر في هذا

– انك ترددين في هذه اللحظة نفس عبارة المرحوم ابيك !

وقالت يوجيني بعزم وهي تواجه الفكرة التي اعتزمت تحقيقها : هل يعتبر من الخطايا الدينية ان تتزوج فتاة وان تحافظ بعد الزواج على حالها كفتاة ؟

فاجابها رجل الدين :

– هذه مسألة خاصة أجهل الحكم فيها · واذا كنت تريدين ان تعرفي رأى الفقهاء القدماء فأستطيع أن أقول لك ذلك غدا ·

ثم ذهب القس وصعدت يوجيني الى مكتبها ولم تنزل الى الغداء رغم الحاح نانون ولكنها ظهرت عند المساء في الساعة التي يتوافد فيها الزائرون · ولم يكن صالون آل جرانديه ممتلئا أبدا كما كان في هذا المساء فقد كان خبر مجيء شارل وخيانته الوضيعة قد انتشر في كل محافل البلدة ولكن احدا من المتطفلين لم يستطع اختراق حجاب يوجيني الروحي الذي لم يظهر عليه أي تأثر اذ حافظت الآنسة على هدوئها الكامل بل استطاعت أن ترد على أسئلة الزوار بابتسامات ترسلها جزافا · وعندما أراد الزائرون الانصراف وقع حادث ظل حديث الناس فيما بعد في كل سومور وضواحيها ·

فقد قالت يوجيني للسيد دي بونفون عندما رأته يتناول عصاه ويريد الخروج :

– ابق ياسيدي · انني في حاجة اليك

ثم قالت له يوجيني عندما أصبحا وحيدين :

– أنا اعرف ما الذي يجذبني اليك · اقسم لي على أنك

تدعني حرة طوال حياتي وأن لا تطالبني بالقيام بأى واجب من الواجبات الزوجية قبل الاقتران بك .

واستطردت عندما رأته يجثو على قدميه :

ـ انني لم اقل كل شيء ! لا أريد أن أخدعك ياسيدى ، الصداقة هي العاطفة الوحيدة التي أستطيع ان أمنحها لزوجي وأنت لن تحصل على يدى وأزولي الا بعد ان تقوم لي بمهمة كبيرة .

جثا الحاكم على ركبتيه أمام الوارثة الغنية وهـــو يتمتم كلمات الفرح والسرور :

ـ سأكون عبدك المخلص .

ـ عندما تحصل على جميع الايصالات احملها مع كـــل أوراق عمي الى ابن عمي وأعطه هذا الكتاب وسأحافظ عـــلى عهدى عند رجوعك .

ـ انني مستعد لكل شيء .

ـ هذا مليون ونصف مليون من الفرنكات . اذهب الى باريس ليس غدا ولا في هذا المساء ولكن في هذه اللحظة : اقصد السيد كريسان واستعلم منه عن جميع دائني عمي واجمعهم ثم ادفع لهم جميع ما يستحقونه من المال بالطرق القانونية التي تعرفها بحكم وظيفتك . انك رجـــل نزيه وسأثق في مركبتك وسوف أقضي الحياة في ظل اسمك وتقوم بيننا صداقة متبادلة . اننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل مما يجعلنا أشبه بالزميلين

وعندما ذهب السيد (دي بونفون) ألقت يوجيني نفسها على أريكتها وأجهشت بالبكاء بينما أخذ الحاكم عربة البريد ووصل الى باريس في مساء اليوم التالي . وفي صباح اليوم الذي تلا وصوله ، ذهب الى السيد كريسان وأحضر جميع الدائنين ثم دفع لهم أموالهم مع فوائدها باسم الآنســـة

جرانديه ، وكان لدفع الفوائد رنة دهشة في محافل باريس وبعد أن انتهت جميع الاجراءات ذهب الى قصر دى بريون حيث قدم لشارل هذا الخطاب من يوجيني :

« يا ابن عمي ، ان الحاكم دى بونفون مكلف أن يعيد اليك جميع الاوراق والحوالات التي تؤيد تسديد ديون أبيك فقد حدثوني عن الافلاس وخفت أن لا يستطيع ابن رجـــل مفلس أن يزف الى الآنسة دي بريون . نعم يا ابن عمـــي لقد حكمت حكما صائبا على فأنا لا أعرف شيئا عن الحياة الاجتماعية ولن أستطيع اسعادك فيما لو قدر لنا أن نتزوج . لكن سعيدا في تلك البيئة الاجتماعية التي دفعتك الى تضحية غرامنا الاول ولكي اجعل سعادتك كاملة لم أر أحسن من أن أقدم لك شرف أبيك هدية جليلة . وداعا . من ابنة عمـــك المخلصة (يوجيني) .

ابتسم الحاكم عندما لاحظ دهشة شارل عند انتهـــائه من قراءة الخطاب ثم قال له :

ـ بعد قليل سنعلن نبأ زفافنا .

ـ آه ستتزوج من يوجيني ؟ حسنا ، انني مسرور ، فهي فتاة طيبة ، ولكني لم أكن أعرف .. أهي الآن غنية ؟

فأجاب الحاكم بلهجة طبيعية :

ـ كانت منذ بضعة أيام تملك مايقرب من التسعة عشر مليونا ولكنها لم تعد تملك الآن الا سبعة عشر مليونا .

ـ سبعة عشر مليونا ياسيدى . سيكون ايرادنا السنوى مجتمعا أنا والآنسة جرانديه مايقرب من سبعمائة وخمسين الف ليرة .

ـ سبعة .. عشر .. مليونا !؟

ـ نعم يا نسيبي العزيز ! نستطيع أن يساعد بعضنا بعضا .

ـ نعم وهذه علبة أخرى كلفت بتقديمها لك

ثم وضع على النضد تلك العلبة التي كان شارل قد قدمها ليوجيني

فقالت المركيزة دى بريولي وهي تدخل دون أن تعير أقل انتباه لمضيفه :

– لا تتأثر بما يمكن ان يكون قد قاله لك هذا المسكين دى بريون الذى غيرت أفكاره الدوقة (دى شوليو) انني أعيد تأييدي لك أن ليس هناك من قوة تستطيع أن تقف عثرة في سبيل زواجك ..

فأجاب شارل : نعم لم يبق مايعترض سبيل زواجي لأن الاموال التي كانت على المرحوم أبي قد دفعت بأجمعها .

– ما ....

– نعم سدد رأس المال والفوائد

فقالت مشيرة الى الضيف هامسة .

– من هذا السيد ؟

– انه وكيل أعمالي .

فحيت المركيزة السيد دى بونفون في فتور ثم خرجت .

وعاد شارل يقول للحاكم :

– لقد اتفقنا .. وداعا يانسيبي ..

ثم راح يقول لنفسه :

– ان هذا القروى يهزأ مني .. انني لأشعر برغبة في اغراق حسامي بدمه !

وبعد ثلاثة أيام من وصول الحاكم دى بونفون أعلن زواجه بيوجيني .

وكان زواجا لحمته المطامع وسداه الجشع ، فقد حسب الحاكم أنه قد غدا بهذا الزواج أكبر أغنياء المقاطعة وأقربهم الى أعلى المناصب . وكان يدرك في قرارته ان الفارق في العمر بينه وبين يوجيني حائل يمنع كل عاطفة ويقضي على كل شعور

بالحب والائتلاف ، كما كان يدرك تماما أن (الفتاة) ما زالت مشغوفة بابن عمها .. تحبه حب العبادة .. وستظل تجتر حبها القديم الى يوم أن تموت .. بل كثيرا ما كان يرقبها في خبث ودهاء وهي تذوى وتذبل أمام ناظريه ، حتى كادت تشرف على الهلاك لولا أن بها مسكة من العقل وذخيرة من التقوى وايمانا راسخا برحمة الله . وما كان يهمه أن تذوى وتقضي بدورها كما قضت أمها من قبل .. بل كان يرضى جشعه أن تنشب فيها المنية أظفارها بأسرع ما تستطيع فيرثها ثم يتحين فرصة أخرى لفل فريسة ثانية من الفتيات المثريات تقع بين مخالبه .

ولم يكن يتورع أن يذكرها بابن عمها ويحدثها بما يسمعه عن استهتاره ومباذله ، فكانت الفتاة يتمزق فؤادها وتمضي الى مخدعها حيث تظل ساعات تصلي الى ربها وتضرع اليه أن يحول بين شارل وبين عصيان خالقه وتلويث سمعته بعد أن حرصت من جانبها على هناءته وصيانة شرف والده .

ولم يعن الحاكم بأن يعيش مع يوجيني كما يعيش الرجل مع أخته أو قريبته ، طالما لا يطمع في غير مالها ولا يطمع في غير أملاكها ، وما دامت لا تسأله ماذا فعل بما جمعه من ايراد ضياعها وكرومها ولا تسأله الا نصيبا توزعه على الفقراء والجمعيات الخيرية ما بين آونة وأخرى . فقد وجدت في الترفيه عن آلام الغير ترفيها عن جراحات نفسها وألفت في التسرية عن الأيامى والثكالى تسرية عن فؤادها الحزين الكليم . ومضت تنقطر سحابة يومها بين اليتامى من الأطفال تحوطهم برعايتها وتكلؤهم بحنانها وتتعهدهم بالبر والاحسان . وطالما وهبت الفتيات من حليها وأغدقت عليهن من مالها ما يقدمنه بائنة لأزواجهن . وهكذا ما برحت

بوجيني العذراء تملاء النفوس حولها اشراقا وسناء وتبدد في قلوب غيرها بذور السعادة والهناء .

بينما مضى الحاكم (زوجها) يعمل لنفسه وحدها .

ولم يمض وقت طويل حتى عين مستشارا فـــــ[illegible] وظل يتقلب في الوظائف الحكومية العالية حتى جاء وقت طمع فيه أن يصبح نائبا . ولكنه لم يهنأ في هذا المركز الجديد اذ حدث بعد أن أصبح نائبا عن سومور بثلاثة أيام أن توفى قبـــل أن يقوم بتحقيق آماله الجشعة . ولعل العناية الالهية هي التي قدرت له هـــذه النهاية جزاء له على الاعيب والدوائر التي دبّرها للاستيلاء على ثروة بوجيني الساذجة التي عاهدت نفسها أن تؤول جميـــع أملاكها وأموالها الى زوجها اذا لم تنجب .

وكان الله قد حبا بوجيني دقة في الاحســـاس ومعرفة بأحوال الحياة اكسبتها اياها التجارب الحديثة التي مرت بها وجعلتها تعتقد أن زوجها كان ينتظر وفاتهـــا بفارغ الصبر ليستحوذ على أموالها الطائلة ويضيفها الى الاموال التي كان قد ورثها عن قريبيه كاتب العدل والقس ، الذي احب الله قربهما فاستدعاهما اليه .

ولكن العناية الربانية المطلعة على كل شيء ، جازته على ضعته ، وقبضت روحه ، وكدست الذهب تكديسا في خزائن بوجيني ، التي كان هـــذا المعدن بالنسبة اليها من أتفـــه الاشياء !

وجـــدت فتاتنـــا نفسها تملك ثروة طائلة ، ومظهرا لا يخلوا من جمال وهي بعد في سن الاربعين .

كان وجهها هادئا أبيض التقاطيع ؛ وكان صوتها لطيفا وحركاتها غاية في البساطة . على الرغم من ايرادها السنوى

الكبير فان السيدة دى بونفون ما زالت تحيا نفس الحياة التي كانت تحياها فيما مضى الآنسة بوجيني جرانديه . فهي لم تزل تسكن بيت أبيها القاتم دون أن تجرى فيه أي اصلاح . وهي لا توقد النار الا في الايام التي كان المرحوم أبوها يسمح فيها بايقادها . وهي ترتدى ثيابا أقل بساطة من ثياب المرحومة امها .

ولولا أعمال البر التي كانت تقـــوم بهـــا كفتحتها في سومور مكتبة تحوى أنفس الكتب وأندرها وانشائها مدرسة دينية ضمت الكثير من الفتيان والفتيات ، وبنائها مستشفى لمداواة الفقراء بالمجان .. لولا ذلك لكان أهالي سومور وجدوا في مسلكها كثـــيرا من المظـــاهر تدفعهم الى وصفها بالبخل والتقتير .

بل كانت يد هذه المرأة تضمد في خفية جراح جميـــع العائلات وستمضى الى السماء محاطة بآلاف الحسنات والاعمال الطيبة . وثقة ابتاعت من علو نفسها وسمو عواطفها ما ستر قلة نصيبها من الثقافة وقلل من أهمية عاداتها الساذجة .

هذه هي المرأة التي لم تكن من الناس ، رغم عيشهـــا بينهم ، التي خلقت لتقـــوم عن جدارة بدور الزوجة والام ، ولكنها لم تهنأ بأم أو زوج ، ولم تنعم بأولاد أو أسرة .

تمـــت

هيئة قناة السويس

هكذا تعبر السفن القناة

١ ـ الاخطار باقتراب السفن من مدخل القناة .

تقوم السفن المتجهة صوب احد مدخلى القناة عند بلوغها مدى الاتصال ، باخطار وكلائها لاسلكيا بمعلومات عن اسم السفينة وجنسيتها وعن اعتزامها عبور القناة أو مجرد التوقف فى الميناء والموعد المحتمل لوصولها ومدة توقفها ، وما اذا كانت تحمل مواد خطرة ، واية معلومات اخرى تفيد فى تحديد مركز الربط المناسب للسفينة داخل الميناء . ويبلغ الوكلاء بدورهم هذه المعلومات الى الهيئة واذا كانت السفينة تحمل مواد خطرة وجب تقديم الاخطار قبل وصولها باربع وعشرين ساعة على الاقل .